الجنة العذراء

محمد عبد الحليم عبدالله

الطبعة الأولى
٢٠١٨م

دار المعارف
تأسست ١٨٩٠

obeikan.com

دار المعارف
تأسست ١٨٩٠

رئيس مجلس الإدارة
سعيد عبده مصطفى

كتب ثقافية
قصص وروايات

تصميم الغلاف:
محمد جمال

لوحة الغلاف بريشة:
هاجر محمود

تم التنفيذ بمركز زايد للنشر الإلكترونى
بدار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل –
القاهرة – جمهورية مصر العربية

عبد الله، محمد عبد الحليم.
الجنة العذراء / محمد عبد الحليم عبد الله.
ط 01 – القاهرة: دار المعارف، 2017.
196 ص، 19.5 سم
تدمك 3 8617 02 977 978
1 – القصص العربية.
2 – القصص الاجتماعية.
(أ) العنوان.
تصنيف ديوى: 813
رقم الإيداع: 21295/ 2017
رقم أمر التشغيل: 1/2017/87
رقم الكونجرس: × – 840590 – 01 – 2

لا يجوز استنساخ أى جزء من هذا الكتاب بأى طريقة كانت
إلا بعد الحصول على تصريح كتابى من دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.
هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ – فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

obeikan.com

ليلة لا تنسى

كان قمــر هذه الليلة لم ينهض بعــد من الأفق، والوقت صيف، والليــل قد جاوز منتصفه بســاعة على الأقــل، ودُور العزبة المطلة علــى الحقول قــد هجعت بكل ما فيها.. حتــى الطيور فى أوكنها والمواشــى فى الحظائر كانت قد استسلمت لنعاس لطيف مع نسيم شهر يونيه الفاتر.

وهناك دار على الطرف الشرقى للمبانى نامت منذ وقت طويل.. ربما بعد أذان العشاء بساعة، فيها غلام فى الثانية عشرة من العمر وأمه الســمراء التى لم تتجاوز الثلاثين، وليس معهما بعد ذلك فى الدار إنسان ولا حيوان.. إذا استثنينا الدواجن؟

وكان «رضا» فــى هذه الليلة ينظر إلى أمــه بإعجاب الابن كأنما رآها للمرة الأولى. فبعد أن تناولا عشاءهما استلقى هو على الحصير الذى فرش فى الســاحة فرارا من الحر وأخذ يستمع إلى حديث أمه الهامس وعيناه تحملقان فى النجوم.. فى سماء صافية وليل ســاكن فى الوقت الذى جلســت فيه الأم فى جلباب من «الشيت» الأبيض. قديــم قطع كماه بعد أن بليا فظهرت ذراعاها البضتان فى هيئة تدل على الصحة، ورمت بمنديل رأســها ثم حلت شعرها وقربت طشتا

وأخذت فى غسل شعرها وتمشيطه وهى تتحدث إلى ابنها عن تاريخ حياة كان من الممكن ألا يقع.

كان بالنسبة إليهما مجازفة مشروعة.. وقصة كأن أبطالها ملائكة وشياطين.

وكان معظمها منصبا على أبيه..

وكانت تتكلم عنه بحنان، كان «رضا» يتعجب لوجوده، ثم يسأل نفسه فى تجاهل يكاد يضحك منه:

– هل أبى موجود؟

ويجىء الجواب من فم أمه المطرقة نحو وعاء ومن خلال صرير المشط الذى يتخلل شعرها المجعد ونور المصباح المعلق فى ركن من الساحة يرسم ظلالا على شعرها ورقبتها وزندها العارى. يجىء إليه صوتها الوانى دائما والهامس باستمرار يقول له:

– إنه فى صحة جيدة.. أحسن من السنة الماضية. لكن.. هل يفكر فينا يا «رضا»؟

وتتأوه وتحس حرارة أنفاسها وهى تلامس يدها التى تمشط الشعر. وينقلب «رضا» على الوسادة ويدير ظهره لأمه لأنه بدأ يحس خدر النوم، ويسترجع الساعات الأخيرة من النهار.. تلك التى قضاها فى اللعب مع «حسن» وأخته «بدور». ويتذكر نظرة البنية الفاترة بنت العاشرة وهى تقرصه من خده فى مداعبة قبل أن يفترقا.. ثم تسود فترة صمت يسمع بعدها وعيناه مسبلتان –

مـع قرقرة دجاجة – أغنيـة حزينة تدندن بها الأم لنفسـها.. ثم همس نسـمة فى بعض أعواد حطب ينتهى بعدها كل شىء فى عالم المحسوس بالنسبة للغلام.. فينام.

* * *

خيل إليه أنه غفا دقائق لا تزيد على خمس.. خمس فقط... حين اسـتيقظ مأخـوذا على صراخ. لم يكن يدرى أن السـاعة قد جاوزت الواحدة صباحا وأنه نام أربع سـاعات. وجلس على الحصيرة يفرك عينيـه ويتلفـت فى الظلام الـذى تضيئه النجوم فى سـاحة الدار المكشـوفة فيرى المصبـاح منطفئا وأمه وقد أمسـكت بتلابيب رجل وهى تصرخ..

وبقى الغلام مشـدوها.. وصمم علـى أن يقوم فيضرب الرجل بما تقع عليه يده، لكنه عاد فخاف أن يكون أباه!

أبـوه؟؟ لكن لماذا تصرخ أمه منه؟ ولماذا يجىء فى الليل على هذه الصورة وهو لم يره مرة فى النهار.

كان كل شـىء مزعجـا غامضا ومخيفا، كان بالنسـبة إلى إدراك غلام اغتصب من نومه شيئا لا يمكن أن يفهم. عجز عنه عقله. لكن قلبه أدرك أن أمه فى خطر شـديد حين سمع دقات عالية على باب الدار لرجال ونساء يهيبون بمن فى الداخل أن يفتحوا.

وقـام «رضا» ولكم الرجل الذى يصارع أمـه بقبضة يده العجفاء فرفسـه الرجل من الخلف فسـقط على الأرض فى الوقت الذى كاد

النـــاس فى الخارج يخلعون فيه باب الدار. فأفاق الغلام على صوت أمه وهى تقول له:

– افتح يا «رضا».. افتح يا «رضا».

وحـــين صر الباب على عقبه الخشـــبى اندفع الناس وفى أيديهم عصى ومصابيح.

وكانت المرأة الســـمراء ذات الذراعين العاريتين والشعر المغسول قبلـــة أنظار الرجال والنســـاء جميعا. كانت العيـــون تخوض فيها خوضا فى الوقت الذى يسألون فيه عن الحكاية.

وأية حكاية؟

شـــاب لا يغطى جســـمه إلا جلباب منفرد فـــى دار امرأة بعيدة عن زوجها ينـــام معها غلام لا توقظه الزلازل.. هذه هى الحكاية؟ وتساءل الأبرياء بينهم وبين أنفسهم! لكن.. ما مصلحتها فى إثارة هذه الفضيحة؟ لأنه ليس من المعقول أن يكون هذا الشاب سارقا. ثم ماذا تملك هى حتى يسرقه؟

ولاذا بالصمت بعد هذا الســـؤال. وكانت المرأة فى قرارة نفســـها تود – لو استطاعت – أن تنهى كل شىء فى هدوء. فقد أحست بقدم تهبط الســـلم فى عجلة وغير حذر. تسلق إحدى النخيل القريبة من الجدار ثم ألقى بنفســـه على الســـطح وكان أول شىء فعله أن اتجه نحـــو المصباح فأطفاه. وكان وجه المـــرأة فى النور وهى نائمة. كانت مرتاحـــة على ظهرها فى أمان مـــن لا يفكر فى المخاطر.. لكن النفخ من خلال الزجاجة أحدث حفيفا أيقظها.

ودلهـا قلبها على أن المراد ليس سـرقة ولا هتك عرض.. ولكن المراد.. فضيحة! فتأهبت للصراع.

وفى طرفة عين عرفت الشـاب حـين ناداها باسمها. لم يكن فى صوتـه دلالة الرغبة ولا ملاينة الذى يريد.. واجتاحت قلبها أفكار خطيرة فى سبيل أن ينتهى الموقف فى صمت لكن رعشة حادة مشت فى أوصالها. فأنشـبت أظفارها فى كتفيه وسـألته عن سبب إقدامه على هذا العمل.

كان صوتها خافتا مرتعشا ولم تكن قد اتخذت قرارا بعد، لكنها سمعت طرقات على الباب جاءت سـريعا قبـل الأوان، فألهمتهما الغريزة أن تستغيث، فصرخت لأن هذا كان هو الحل الوحيد.

كان النـور الذى أرسـلته المصابيـح الريفية فى أيـدى الرجال والنسـاء يغمر الدار، والأبرياء ومن بينهم «رضا» يسـألون أنفسهم عن الحكمة فى إثـارة هذا كله وينحون باللائمة على المرأة، لكن.. مالبث كل شـىء أن انكشـف حين دخل «حمودة» يشق الجمع فى صولة وثورة وفى يده عود من الخيزران.

وسـع الناس له الطرق، إنه الابن الأكبر للحاج «ماضى» صاحب الأرض وفضـلا علـى أنه كذلك فهو صاحب الأمـر والنهى فى هذه الرقعة التى تبلغ مائتى فدان.

كان طويلا يتثنى فى مشيته كأن به عرجا خفيفا وإذا غضب خيل إليه أن وجهه تورم، ولم يكن على رأسه شىء كأنه ناهض من النوم لكـن قصر المدة التى تتابعت فيها الحـوادث دلت على أنه كان فى مكان قريب من الدار.

واتجــه «حمودة» نحو المــرأة والرجل وطوح بالعــود فى الهواء فوســع له الجميــع وكانت أنوار المصابيح فــى الناحية الخلفية من الدار «والخاطئــة والقذر» على حد تعبيره فــى نصف ظلام ينهال عليهمــا ضربا وهما يتأوهان وبقية الفلاحين يســتحلفونه أن يعفو عنهما!

لم يكن «رضا» يشــهد بقية الحوادث وهو بين الناس فى ســاحة الدار. كان يرتجف بشــكل لا يوصف ذكره ليالى الملاريا.. فقط كان ينقصه العرق لكنه ذرف دموعا.

لجــأ إلى أقرب حجرة من الموقعة، دفــع بابها ودخل، ولبد فى الظلام على مقربة من فتحة الباب يرقب ما يجرى.

– «إن الله حليم ستار.. إن الله حليم ستار».

ووصلــت إلى ذهنه العبارة، مــن كل فم، كانت تفعل فى قلبه ما تفعل الأحزان التى لم يكن جربها بعد، فشــعر كأنه يشــيع جنازة أمه، وكأن كل هؤلاء بانتظار جثمانها العزيز.

وسمع «حمودة» يسأل عنه:

– أين الولد «رضا»؟

لم يرد هو، وزاد التصاقا بالجدار خلفه وشعر بإحساس الهارب مــن العدالة فقــد كان العود فى يد أخيه.. أخيــه «حمودة» .. وهو متأهب للعمل.

وكأنما أنساه الغضب أن يبحث عن أخيه الصغير، وتلفت الناس فى إهمال من يؤدى مهمة غير محبوبة.. ولم يذكر اسم «رضا» مرة أخرى.

وبـدأت الأصـوات تخفـت والحدة فـى الفتور فأخذ شـىء من الطمأنينة يزحف إلى قلبه الصغير، وكان يسأل نفسه: ماذا سيصنع أبوه عندما يعلم بما حدث.

وعندما كان مشغولا بهذه القضية كانت أنوار المصابيح فى أيدى النسوة تتراجع فى أعقاب الرجال الذين يغادرون الدار.

وبعد أن انسـحبت آخر امرأة بمصباحهـا أطبق الظلام وأغلقت المرأة باب الدار من جديد فعاد يصرصر، وتذكرت ابنها وهى تعود إلى الداخل فنادت عليه بصوتها الباكى:

– رضا.. رضا..

وبرز من فتحة الباب مثل الفأر.

– هات الكبريت.. الكبريت يا «رضا»..

وعبثـا حاول أن يعرف مكانه فأعفتـه من البحث. لم يكونا فى حاجـة إلى النور فالظلام خير لهما.. وعـادا إلى حيث كانا يرقدان علـى الحصير، لم يتغير شـىء ما، وغاية ما حـدث أن رقدت هى بينه وبين الحائط كأنما كانت تطلب حمايته، ولته ظهرها، وظلت تبكى وهو ينصت وعيناه مثبتتان على شـعرها الأسود.. حتى غاب مرة أخرى عن عالم المحسوس.. حتى الصباح..

كانت الأم تعلم أن الحوادث لم تنته بعد وأن اليوم التالى سيحدد مصيرها فى هذه الأرض.

لذلـك لم تخـرج من دارهـا ولم تفتح الباب لأحـد، وفى زوال النهـار كانت خائفة.. وعند ارتفاع الضحـا تحول الخوف إلى قلق

غامـض.. وعند الظهر تحول القلق إلى عدم مبـالاة، ليس نوعا من الاسـتهتار لكنه نوع من الرضا بالمصير، رضا المشنوق الذى لا يملك إلا ما يساق إليه.

وكان الـرأى العـام فـى العزبة همسـات أو إشـارات يفهم منها أن «حمـودة» دبر هذا لزوجة أبيه، وحتى الشـاب الذى كان أشـبه بالحيـوان وهو يتلقى ضربات «حمودة» ليلة الحادث معروف أنه من أتباعـه، لكن جميع الأفـواه التى تعلق على ما حـدث كلها من هذه الأرض. ومجرد الأسى لشخص لا يعرقل زحف المصائب إليه..

الثيران تدير السـواقى، والدواب تحمل السماد، والفئوس تشق الأرض، وبعض الفلاحين يغنى..

لم يتغير شىء فى الدنيا على الرغم من أن الأم خيالها يرسم لها وهـى تطعم الدجاج أن الثور الـذى يحمل الأرض عاجز عن حملها منذ اليوم..

أحست وهى تنهض أن قواه مثل قواها قد خارت وأنه على وشك أن يثور ويرمى بها.. إلى أين؟

وأغمضت عينيها لأنها شعرت بدوار..

ولم تلبث أن سمعت طرقة على الباب فخفق قلبها. لابد أن يحدث شىء عندما يعلم زوجها.. أبو حمودة وأبو «رضا».. بالتساوى.

لكن الطارق كان امرأة تسـأل عن دجاجة ضالة!!.. فأحست أن سـاعة التنفيذ لم تحن بعد وركبها من جديد شـعور بعدم المبالاة.. لكن يخالطه الحزن..

وتحت إحدى الأشـجار جلس ثلاثة من الصبيان يلعبون.. هم: «رضا» و «حسن» و «بدور».

وكان «رضا» طوال هذا الصباح يشعر أن شيئا قد ضاع منه، وكان ينظر إلى معالم وطنه بإحسـاس الغريب.. وصديقه «حسن» – الماهر فى صنع كل ما يسلى وما يجلب غيرة الصبيان وإعجابهم – مشغول فى عمـل طنبور من أطـراف أعواد الذرة. يسـتعمل الشـوك بدل المسامير وقد سـبق أن صنعه مرة ورفع به الماء فتناقل الصبيان هذه الأعجوبة، وكان «رضا» و «بدور» يسـاعدانه كصبيان النجار.. وهو مكب بوجهه الشـديد السمرة السعيد يعمل ويثرثر. و «رضا» يسأل نفسه من خلال أحزانه عما إذا كان صديقه يعلم ما جرى فى دارهم أمس؟ إنه لم يحم حول الموضوع بكلمة واحدة.

كان الاثنان مشـغولين فى إتمام المعجزة الجديدة.. طنبور أكبر من الأول.. سـيرفعون به المـاء من بئر يحفرونها ويسـقون حقلا زرعوه بالأغصان..

أمـا «بدور» فقد كانت تدور مثل النحلة لتجمع الشـوك. مهمة طريفة بالنسبة للبنية الجميلة.. ذات الضفائر التى يلمع فى آخرها شريط من الحرير الأحمر يتمرجح على ظهرها وهى تجرى.

كانت تجمع الشـوك والصديقـان منهمكان فـى العمل، وفجأة صرخـت البنية فانتفض لصرختها الغلامان. ظنا أن ثعبانا هاجمها من خميلة الغاب النامية على الترعة، لكنهما عرفا أن شوكة دخلت فى قدمها.

وكانــت على مقربة منهما لكن الحادث البســيط لم يســتطع أن يخرج شقيقها من هوايته فخف إليها «رضا»..

كانت جالســة على الأرض وقد رفعت ســاقيها قليلا، وانطوت تنظر مكان الشــوكة مــن القدم. فأتاح هذا لثوبهــا أن يتزحزح وأن يظهــر من جســمها أماكن لا تراها الشــمس. فأحــس «رضا» بأنه يحبها.. مجرد إحساس عابر كعصفور شقشق قبل الربيع. وما لبث أن جلــس على مقربــة منها ووضع قدمها على فخــذه وأخذ ينبش بأظافره الطويلة ليخرج بقية الشوكة التى غابت فى القدم.. وكانت هــى تضحك وتبكى وتتــأوه بطريقة لا تدرك معناهــا، انتهى كل شــىء بسلام ووضع «رضا» رأس الشوكة فى كفة ليعرضها عليها فى انتصار.

كانت الصبية تقرقر بالضحك وفى عينيها بقايا دموع.

وكان هو يتأمل ملامحها وقــد تعاقبت عليها انفعالات متطرفة رعنــاء، وفجأة غاب المرح عن نظرتهــا وحملقت فى غضب وعرف منه «رضا» أن شخصا وراءه، فنظر فإذا بغلام يبرز من وراء شجرة، كانت «بدور» تكرهه لأنه يعترض طريقها باستمرار.

وظل الصمت عليها وعلى «رضا» فى الوقت الذى تقدم منها الغلام وهو يغالب ضحكه. ظلا جالسين كما كانا وظل هو واقفا يقهقه.

ولم يتكلم أحد الثلاثة حتى بدا شىء من السخرية فى ضحكات الغــلام. وهمت «بدور» أن ترميه بشــىء لكنه نــادى على «رضا» قائلا له:

– تعال.. كلمة واحدة..

انتحى به مكانها وهمس فى أذنه بكلمات أفاق بعدها «حسن» و «بدور» على شجار بين الغلامين كانت كلمات «رضا» تتردد خلاصة بصوت ناقم جريح:

– عارف معنى ما تقول يا سافل؟.. عارف معنى ما تقول يا سافل؟ وخف الشقيقان لينضما إلى «رضا» فى المعركة فولى الغلام هاربا. وجلس «رضا» على التراب ينتحب وزم «حسن» شفتيه فى إصرار على الانتقام فقد تأكد أن أخته قد هوجمت ولم يكن الشقيقان يعرفان أن ما قاله الغلام لـ «رضا» إن هو إلا صورة لبعض ما قيل فى العزبة:

– «مين كان بيطلع لأمك الشوكة من رجلها بعد نص الليل»؟ وبعدها.. ضحك الأول، ولم يلبث الثانى أن بكى؟.

* * *

يا أبى!

وفى نفس هذا الصبـــاح كان الحاج «ماضى» يعانى إحدى نوبات الصرع. كان فى شـــبه غيبوبة على سرير عتيق فى حجرته الواسعة من بيته الكبير.. ودخل زوجان من الحمام من إحدى النوافذ ووقفا يبرجمان فوق عوارض السرير..

وفى الجو رائحة بطاطس عطنة وأحد الثيران يخور على مقربة فى الحقول.

ومن خلال النافذة بدت خصوبة الأرض وهى تتدرج شيئا فشيئا نحو الهبوط حتى تصير رملا ثم.. كثبانا.

وهو الآن قد جاوز الســتين. راقد فى جلباب ليس تحته شـــىء لأنه شـــديد الإحساس بالحر. ومن خلال شـــباك السرير الحديدى يمكن أن ترى فى كعبيه آثار شقوق قديمة وفى بقية القدمين بياض مثل بياض الجير.

ومـــن فتحة الجلباب عند الصدر يبدو جســـمه الخفيف الشـــعر الأحمر البشرة، كأن به آثار نتف أو سلق. وعند الثديين بقعتان من بهاق لم تأخذ واحدة منهما شكلا هندسيا منتظما.

وكان دقيق الشفتين خفيف شعر الرأس. وجهه المعروق الأحمر كأن به.. أيضا آثار نتف أو سقط عليه ماء ساخن.

وطالما عانى ابنه «رضا» الأسمر من هذه الظاهرة. كان يود لو أن وجه أبيه كان فى لون آخر.. فقد كان الصبيان فى المدرسة إذا ما تشاجروا معه يقولون له: يا ابن الإنجليزى..

ولم يكن أحد يدخل على الحاج «ماضى» غرفته وهو مريض إلا قليلا.. عندما يعن لزوجته «أم حمودة» أن تراه.. مندفعة بحب الاستطلاع لا الرعاية ولا الحب القلبى..

فلم تكن تحبه..

وقد كانا نصفين غير منسجمين. وقد صدمت فيه منذ الليلة الأولى..

ليلة نامت عروسا جريحة كما تقضى تقاليد الريف. بعد أن ثبت بواسطة يد الزوج أن العروس عذراء فانطلقت الزغاريد.

ولما سكن الليل وانفض الناس لم يطل بهما السمر ونام «ماضى» يشخر مثل الذبيحة وقد تدلى فكه وبدت أسنانه وتجويف فمه.. وقامت «منيرة» وجلست بجواره.. وكحت وتنحنحت لعله يستيقظ، ثم أخذت تتأمل الملامح العابسة تحت نور المصباح وكأنها شىء لا يخصها.

كان على أسنانه خضرة وصفرة وعلى زاويتى فمه زبد خفيف. وسألت نفسها: كيف سيقبلها هذا الفم؟!

ثم انطوت ونامت..

وبعد يومين تركها وذهب إلى سوق الماشية، فقد كان تاجرا وسمسارا فضلا على أنه فلاح يملك بضعة أفدنة غير خصبة فى القطعة التى تقع فيها عزبته الآن، وعاد من السوق ومعه أقتان من العجوة فى المنديل وأمرها وقت العشاء أن تصنعها بالبيض والسمن.

ثم سهر يكلمها عن أثمان الماشية وحوادث السوق. ثم قام إلى المصباح فأطفأه.. وناداها..

واستغرقت فى النوم بعد ذلك فترة قامت بعدها على دردبة الشخير.. وكان هذا يعذبها لكنها لا تملك حيلة.

وأنجبت بنتا قبل «حمودة» كانت صورة صغيرة من أمها البيضاء.. أما أبوها فقد كان يعرض عن القلة السليمة ليشرب من التى كسرت عنقها، وينفى الملعقة بأطراف أصابعه ليغرس يده فى الطعام ويتجشأ وهو يأكل ويملأ شدقيه ويتكلم، وإذا ما استلقى إلى جوار زوجته فاحت رائحة جسمه.

لكنه فوق كل ذلك كان فيه حذر الفلاح. وتطور الحذر فصار عمقا وحرصا لا يوصف.. فلم تستطع زوجته يوما ما أن تعلم حقيقة ماله ولا دخيلة نفسه. كان قادرا على أن يلبس قناعا حزينا وهو فى أشد حالات الفرح وقادرا على أن يفعل العكس.. مولعا بشراء الفضلات من كل شىء. والبياعون فى سوق القرية ينتظرون مقدمه آخر النهار ليحمل البائر. ويدخل على زوجته وهو يئن كأنما حمل فوق ما يطيق..

ولم تستطع «منيرة» إلا أن تضمر له الكره، وعندما كان يعود من بعض الأسـواق وقد فاحت منه رائحة الصوف والعرق كانت تحس بالغثيان عندما يلامسها.

وبعد مرور عشرين عاما على زواجهما منحها الزمن قوة جديدة كفلت لها الدفاع عن نفسـها كإنسان برغبة مستقلة. فانفجرت فيه ذات ليلة وهجرت فراشه.

على أنه لم يأسـف لها كثيرا فقد أضيف إلى ترفعها عليه شـيء آخـر.. هو أن نوبـات الصرع كانت تعوده فى فـترات متقاربة فى ذلك الحين.. وقـد أخذته صباح اليوم نوبة شـديدة، بعد أن دخل عليه ابنه «حمودة» قبل الشـروق وأنبأه نبأ خيانة «بهية» زوجته السمراء.. أم «رضا»..

لم يكـد قلبه يصدق.. لكن بعض الوقائع ليس مجرد غبار ينفض عن الثوب وينتهى الأمر.

ونظر الـزوج إلى صدره من فتحة الجلباب فرأى بقعتى البهاق، فأحس كأنهما على شفتى زوجته وخديه وتحت عينيها.

لم يعد بحاجة إلى أن يراها بعد أن لحقها هذا التشويه.. وفكر.. وفـرض أن هذا الذى حـدث لها من تدبير ابنـه الكبير فقذف به الفـرض إلى فرض آخر.. إلى أنه أراد أن ينتقم منها لأنها دفعته عن رغبـة.. أو حققت له رغبة ثم منعتهـا عنه. ورأى الموقف على كل حال شيئا شائكا..

لكنه عاد فتذكر كيف أحبها. منذ خمسة عشر عاما أيام كان فى فقر وصفاء، وكان يذهب مع أبيها ماشيين إلى السوق على بعد خمسة عشر كيلو مترا، والنور لم يظهر بعد، والحكاية التى يسليان بها السفر.

وكان أبوها رجلا فقيرا جدا، رقيق القلب، حلو الحديث، من قرية تبعد عن الحاج «ماضى» بثلاثة كيلو مترات.

لم ينس له الحاج «ماضى» جميلا صنعه ذات مرة وهما فى طريقهما إلى السوق فى يوم شتاء. ولأمر ما ركب كل منهما حمارا وكان والد «بهية» سابقا بركوبته يحكى لصاحبه إحدى مغامراته فى عهد الصبا وهو يضحك، وفجأة سمع شيئا يسقط فالتفت خلفه فإذا بزميله الذى ظل يقاوم بوادر الصرع يسقط من فوق حماره ويتدحرج نحو قناة على جانب الطريق.. فينغمس فيها.

ولما ارتفعت الشمس وأفاق الحاج «ماضى» وحملق رأى منظرا أسر قلبه فقد كانت الملابس المبلولة فوق جسم صديقه، أما ملابسه هو فقد كانت عليه بعد أن صنع له كنا من حطب الذرة أتى به من حقل قريب.. ثم خلع صديقه الملابس قطعة قطعة وجففها على النار.

وكسبا فى السوق، واشتريا وباعا، وذهب الحاج «ماضى» إلى دار صديقه يسهر عنده ذات ليلة وجلست «بهية» تصنع الشاى.. سمراء ممتلئة فقيرة سليمة تتعانق على ظهرها بين حين وحين ضفيرتان من شعر كثيف.

وشعر «ماضى» بأنه يطلب أنيسا، وتذكر البيضاء المترفعة وحملق فى السمراء التى جاوزت العشـرين، والثانية من بنات بينهم ولد واحد هجر القرية.

وأحـس ماضـى بالقرش فى جيبـه والحب فى قلبه، ثم شـعر بالقدرة إزاء بهية وأبيها.

وقبيل انتهاء السهرة قال الحاج «ماضى» لصديقه:

– ما رأيك.. عندى عريس للبنت «بهية».

فرد الأب ضاحكا فى فكهته المعهودة:

– إيدى علـى كتفك.. ملكنى رقبة ابن الكلـب قبل ما اموت يا «ماضى».

فضحك ماضى وأمسـك بكفـى صديقه برفق ونفسـه مقطوع من القهقهـة ثـم رفعهما حتى طـوق بهما عنق نفسـه. وحملق الأب وصمـت، ثم ضحك وصفق بعد أن رفع يديه عن عنق صديقه. وبذلك تمت الخطبة.

* * *

وجلس «ماضى» فى فراشه عندما وصلت أفكاره هذا الحد. وزوج الحمام على عارضة السـرير لا يزال يبرجـم، فألقى عليهما نظرة كسـيرة. ثم تسـلل بصره من خـلال النافذة بعد أن مـلأ أنفه عطن البطاطس فرأى العزبة من خلال قضبان الحديد.

كانت أسوار التين الشوكى لا تزال قائمة تحدد تلك البقعة الخضراء.

وعندما وقع بصره على التين بكى من عينيه وأنفه، ومسح دموعه بجلبابه.

ودخلت عليه خادمة تحمل صينية صفراء عليها خضار وقطعة من لحم لم تنضج من البارحة، وأخذ «ماضى» يمضغ فى تهالك وهو يحس بإعياء كامل. ويذكر الليلة السعيدة التى دخل بها عروسا على «بهية» فى الخفاء، فقد كان الاتفاق أن يكتم الأمر، وساعد على هذا بعد دار «بهية».

وبنى «ماضى» حجرة جديدة فى دار صديقه على حسابه دخل بها على العروس. كانت ليالى جميلة بالنسبة إليه.. شعر فيها كأنه مع نفسه، أما فى حجرة منيرة فقد كان يشعر كأن ناسا يراقبونه.

غير أنه كان يتمنى شيئا.. هو.. أن تكون «بهية» عقيما.. إنه لا يريد ذرية بعد ذلك. إن «حمودة» صورة جسمية منه وصورة نفسية من أمه.. وكفاه عذابا، إنه يريد الحنان والمتعة، وهو نظير هذا يتنازل لزوجته وابنه عن كل سلطانه، فظل يبتهل إلى الله أن تكون «بهية» عقيما.

لكنها بعد عام حملت منه، ولما زفت إليه البشرى فى طيبة احمر وجهه واسودت الدنيا فى عينيه، وكان يأمرها أن تحمل

الأشـياء الثقيلة بتجاهل عسى أن يسـقط الجنين.. لكن.. لم يسقط جنين كتب له على الأرض قوت حتى يموت.

* * *

وفـى نفس الوقت الـذى كان الأب فيه يمضغ لحـم الجمل كان «رضا» وأمه لا يزالان بانتظار أمر حاسـم وقررت الأم أن تذهب إلى زوجها، أن تنتقل من دارها المستقلة فى الطرف الشرقى من العزبة إلى حيـث يقيم وأن تلقاه وجها لوجه. لم تكـن تعرف ماذا تريد، لكنها كانت تجرى فى كل اتجاه.. بجسمها فى الدار وأفكارها فى الخارج كما يجرى المطاردون تماما.

وكان الابن زائغ العينين عندما رأى أمه تجمع الملابس فى سبت كبير وهى تبكى، وسألها:

– مسافرين يا امه؟

ونظرت إليه. وهزت رأسـها علامة الإيجـاب. وحالا.. عادت فهزتهـا علامة النفى. وظهـرت دموعها وأخرجـت الملابس مرة أخرى وأعادتها إلى حيث كانت وأخذت تبكى بصوت مسموع.

كان «رضـا» يفكر فيما حدث فى الليلة التى لا تنسـى، ويتذكر التأوهـات التـى كانت تطلقها «بـدور» وهو يخرج بها الشـوكة. والكلمـة المريبة التى أطلقها فى وجهه الغلام.. والضحكة المريضة. وحملق فى وجه أمه الأسمر المسـتدير حيـث خط الدمع يبرق على

خدها، وعلى شـفتها العليا بوادر زغب فضحه نور الشمس. وفجأة طرق الباب..

وحبست الأم أنفاسـها ودمعها، وخف «رضا» ليفتح، ثم ارتفع صوته عاليا مهتما كمن يعلن قدوم موكب:

– عم الحاج «محمود» يا امه.. عم الحاج «محمود».

وبلعـت ريقها، وخيل إليهـا أن نقطة من النـور طافت بظلام الموقـف فجرت إليه تلملم أذيالهـا وقبلت يد الرجل الذى اعتبرته رسـول سـلام. وحين حملقت فى عينيه قرأت فيهما الأسى، وقال الرجل وهو ينكث الأرض بعصاه.

– الله يرحم والدك يا «بهية» .. هو السبب فى كل ما حصل.

فدقت صدرها وقالت، وقد شرقت بدمعها:

– إذا كنت أنا بنت أبى فلماذا لا يكون «رضا» ابن الحاج «ماضى» كذلك، ما ذنب هذا يا حاج «محمود»؟

وأشـارت إلى الفتى المسند على الجدار برأسه كأنه يخاف أن يسقط.

واستطردت فى ابتهال:

– لكن.. هل صدقت ما قالوه عنى؟

وأمسـكته من كمه وجعلت تستحلفه وتبكى وهو صامت، حتى رفع رأسه إلى السماء ودعا الله بمالم تسمعه ثم قال لها:

– لا.. ظلم.. لا.. كله ظلم يا «بهية».

وقدم لهـا بضعة جنيهات بعث بها زوجهـا، وحمل إليها نبأ ضرورة الرحيل، وسألته بوله:

– و «رضا»؟

فأجاب باستسلام:

– ورضا.. حتى يروق الجو..

ولما أغلق الباب خلف «السـفير» كان كل شـيء بالنسـبة للأم.. لا يسـاوى شـيئا.. كانت تحت تأثير المخدر الـذى تقدمه الطبيعة قبيل النكبات. ومن فوق سـطوح الـدار لاح لها برج حمام فى قرية قريبة كانت تعين به موقع دار أبيها كلما صعدت لنشـر الغسـيل فتذكر أترابها اللاتى لعبن معها. ووقع بصرها على البرج فترحمت على الراحلين أمها وأبيها، وتذكرت ابنها الواقف تحت فى ساحة الدار وهو يجمع كتب السنة الماضية والكور التى صنعها من الجوارب ليقدمها هدية إلى صديقه «حسـن» قبل السفر، فلم يعد هناك صوت واحد يسـتطيع أن يحمى حقها. حتى صوت الحاج «محمود» وبدت فى عينيه انكسـارة الخوف من همجية «حمودة» الذى يحمل جسم حصان ووجه إنجليزى.

واتجهت أسـراب الحمام نحو قرية «بهية» وهى لا تزال واقفة على السـطح. كانت كأنها تطير بقلوبها قبل أجنحتها نحو البرج. وتابعتها عينا «بهية» حتى غابت فنزلت هى إلى تحت.

* * *

كانت الشمس تنهض من وراء النخيل والأشجار فى الصباح الثالث عندما كانت الأم منطوية على كرسى القطار تبكى فى صمت. أما «رضا» فقد كان ينظر من النافذة. رأى برج حمام فى قرية أمه، وبرج حمام فى قرية أبيه.. جنب دار أبيه الكبيرة. كان هو الآخر تحت تأثير المخدر الذى يصاحب النكبات وبرق الندى على أوراق القطن والدمع على أهداب الغلام. وبحث عن ريقه كأنه يريد أن يتكلم، لكنه لم يجد من يقول شيئا.. كانت الأم مشغولة بدموعها. وهو وحده. أحس كأنه يريد أن يودع أبراج الحمام.. أن يكلمها ما دام لم يجد أحدا يقول له:

– ح توحشنى!

وعلى رصيف المحطة الريفية بدأ فجأة إنسانان هما «حسن» و«بدور».

وضحك «رضا» وبكى فى وقت واحد، وناول كلا منهما يدا يسلم من النافذة..

عندئذ وجد الفتى من يقول له كلمة يبدو أنها ضرورية لكل مسافر:

– ح توحشنى!

* * *

الغريبان

كانت الأم تعلم أن شـقيقها «بركات» هو صاحب قهوة «بركات» فى أحد أحياء مصر القديمة.

كانت صورتــه تتخايل خلال أهدابها ومخاوفها والترام يشـق بها شـوارع العاصمة، أما الابن فقد أنسته جدة المناظر ما حدث فى العزبــة منذ وقت قصير. أحــس كأن زمنا طويلا قد مضى، غير أنه كان يفيــق على مخاوف أمه وهى تسـأل من بجوارها عما إذا كانوا قد وصلوا إلى الحى! ثم نزلت تحمل على رأسها وابنها يحمل على كتفه، وأمامهما حمال كذلك يرشدهما الطريق.

ووصــلا إلى ميــدان صغير على رأس الحارة تحــده مع الدكاكين القليلــة أوقــاف من الملتين ألقــى جمودها وســكونها – مع حركة الدكاكين – على الميدان معنيين متناقضين.. الحياة والموت.

وخفق قلب «رضا» عندما التقطت عينه لافته طويلة تحمل كلمات قهوة «بركات» شعر كأنه وصل إلى المرفأ وهتف بأمه بلهجة ريفية.

– قهوة خالى يا امه.. قهوة خالى.

فتركزت عــين الأم والحمال والغلام على وجــه رجل يقف فى الباب. ولمحوا الزبائن القلائل المنتشــرين على الكراســى فى ذلك الوقت من الظهيرة.

وهتف «رضا» كأنما أراد أن يؤكد لنفسه سلامة الوصول:

– خال.. يا خال.

فانتبه رجل بوجه أسمر كأنه خلاسى يبدو أنه فى الخمسين وإن كان فى الأربعين فقط وحملق بعينين مدمنتين فى القافلة التى تحمل المتاع والمتاعب وفغر فمه ثم صفق فى دهشة وقهقه ثم همس:

– بهية؟!. صحيح؟.. أختى؟!.. تعالوا..

لكن الحنان الذى فاض من نبراته جعل «عزوز» صبيه ابن الخامسة عشرة يعجب كيف يكون هذا القاسى فى مثل هذه الرقة.

ثم تحركت القافلة نحو بيت فى إحدى الحارات وتركهم «بركات» يصعدون السلم الضيق فى تلمس وحذر وسبقهم ليعلن الخبر إلى زوجته فى الشقة.

وبعد أن استقر بهم المكان فى حجرة صغيرة والتف حولهم البنات والبنون كانت «بهية» تفكر فيما يجب أن تقول لأخيها و «رضا» يحملق فى كل شىء وراعه أول الأمر تلك الملابس الضيقة فوق الصدر الأبيض المكشوف والجسم السمين الملفوف لامرأة خاله.

ولم تكن «بهية» قد رأت أخاها منذ سنوات لأن نزوله إلى الريف بعد رحيله منه كان أمرا شاقا بالنسبة إليه.

ومشت حياته ارتجالا منذ شبابه الأول مثل أى حياة لأى شاب فى أى قرية، فبينما كان أبوه رجلا متصوفا يحب الله والرزق الحلال كان «بركات» شابا لا يعرف ماذا يصلح له؟ فهو كعامل زراعى رقيق

الصحـــة، وكتلميذ رقيق الحال، ولا يملك مهارة أبيه فى الاحتيال على الرزق والقناعة بالقليل ويطلب الكثير بحكم ســنه ونزواته مع أنه لا يستطيع أن يكسب شيئا.

ونظرت «بهية» إليه بعد أن فرغوا من الغذاء الذى قدمته زوجته فى صمــت، وحملقت أخته فيه وهو يشــعل ســيجارة فرأته كأنه يأكلهــا، فتذكرت المعركة التى دارت بينه وبين أبيه بســبب ذلك وتذكرت أيضا أنه خرج من القرية بســبب ذلك، فقد كان «بركات» كلمــا مر بين الناس سمع ضحكات وهمســا يــردد مثلا يقول: «إن سرقت اسرق جمل، وإن عشقت اعشق قمر».

حتى «بهية» طالما قالتها له خصوصا يوم تشاجر معها ليأخذ بيض الدجاج ليشترى سجاير، ولطمها وخرج، ولم تمض ليلتان حتى ضبط فى الليل متلبسا بسرقة، كان الخفير نائما – لكن الخروف المسروق حرن منــه فى الطريق فاضطر «بــركات» إلى أن يحمله مع أنه ثقيل ومشــى يلهث به ليخرج من أقرب طريــق إلى الحقول لكن الكمامة التــى كانت عبارة عن حبل ربط به فك الخروف كانت قد انســلتت فصاح فى جوف الليل كأنه يستنجد برجال الأمن وفكر «بركات» فى أن يتركــه ويهرب لكن الخفير أدركه وقادهما إلى «العمدة» وقال له الناس ليلتها هذا المثل المعروف ومن أجل والده الطيب أعيد المسروق إلى صاحبه على أن يرحل هذا الخائب عن القرية.

ولم يكــن بركات محتاجــا إلى هذه النصيحة فقــد كانت الأفواه تنفرج عن ابتسامة مخزية كلما مر فى طريق.

كانــت «بهية» لا تزال تحملق فيه خائفة منه. تفكر ماذا تقوله لــه.. وقدمت زوجة أخيها طبقا من العنــب.. ثم نظر «بركات» إلى زوجته بعينيه المدمنتين القويتين وقد أســند ذقنه إلى قبضة يده – ورضا فى حجرة أخرى مــع بقية الأولاد – فبادلته الزوجة النظرة وانسحبت وأقفلت وراءها الباب وتلفتت «بهية» فرأت نفسها وجها لوجه مع أخيها الذى يريد أن يعرف كل شىء.

* * *

كانت «بهية» مطرقة نحو حجرها تردد فى نفسها المثل التاريخى بالنســبة لها ولأخيها: «اسرق جمل.. اعشق قمر». وأفاقت سريعا على صوته العميق الذى يشبه صوت ممثل الاتهام:

– خير يا «بهية».. خير إن شاء الله!

– خير يا خوية..

وصمتــت ثم قالــت بدموعها وشــفاتها ترتجفــان إلى حد بعثر كلماتها:

– أنا مظلومة..

فرد بغضب وضيق صدر:

– الله يظلــم أبوك حــب يعمل من الأعيان فباعــك للإنجليزى.. للأرناؤوطى الحاج ماضى!

وظلــل صمت قصــير، وكانت ضحــكات الصبيان فــى الحجرة الأخرى عالية ســاخرة من شــىء هناك تمنت «بهيــة» أن تعرفه.

وندمت على اتخاذها هذه الخطوة وأحست أن وجه «بركات» وعينيه تفيض بالنقمة على أشياء لا تعرفها، فلم يعد هو ذلك الشاب الطرى الممشوق الذى يبدو فى رقة التلاميذ، وجهه يدل على أنه يسهر الليل وينام النهار وشاربه الأسود واضح فى وجهه الخلاسى.

وتنحنح كأنما يريد أن يعيدها إلى وعيها وعاد يقول:

– خير.. خير إن شاء الله؟

فقالت بانكسار:

– لفقوا لى تهمة يا «بركات».. باطلة والله العظيم.. آه.. آ..

– تهمة؟

– آه..

فقال بطريقة مخيفة:

– سرقة؟! سرقة أخرى؟!

وعنئذ فكرت «بهية»، أسعفتها البديهة فلم ترد سريعا لترى على الأقل فكرة أخيها عن الموقف بعد الأعوام التى عاشها هنا بعد حادث سرقة مشين. ولما طال سكوتها أيقن الأخ أنها سرقت أيضا، فقال وهو يرمى بعقب السيجارة من النافذة لكن بهدوء نسبى ونبرة تهكم:

– يعنى سرقت مثلا.. مصاغ أم «حمودة»؟!.. جواهرها؟! وخاتم الخطوبة الذى قدمه لها الأرناؤوطى.. هيء!

وحزنت «بهية» أحست أن القدر يضيق عليها الخناق، تمنت لو أن «بركات» ثار فى وجه هذه الجريمة وقال لها المثل القديم.

وأشعرها الموقف بأنها لابد أن تقول شيئا فقالت:

– لا يا «بركات».. تهمة تانية..

فتأهب/ واحمر بياض عينيه وأخذ يمشط شعر رأسه المجعد الطويل بأصابعه وقال لها ضاحكا متهكما:

– فاكرة: «.. اعشق قمر» قولى

* * *

وبعد أن فرغت من القصة مال عليها وأمسكها من شعرها وشده فى عنف وهو يحذرها أن تصدر صوتا وسألها عن دليل لبراءة ساحتها فذكرت له اسم الحاج «محمود».. إنه يعرف أسرار ما يدور هناك كما يستطيع أن يعرف سلوك «بهية».

وصمت الأخ، وحمل رأسه بين كفيه وأطرق نحو الأرض، وأخذ يفكر: إن الحاج «محمود» رجل صالح ويعرف الأمور هناك، وربما كان ما حدث قد دبره «حمودة» حقيقة ليلوث عرض زوجة أبيه ويتيح فرصة للأرناؤوطى أن يحرم «بهية» وابنها من كل شىء، لكن.. أليس من الجائز أن تكون التهمة صحيحة؟!

وظلل صمت قال بعده فى أسى يغلفه هدوء مغلوب:

– ضـرورى يـا «بهيـة».. إن كل واحـد منا. يخرج مـن البلد بحادثة؟! آه.. الأمر لله!

وانتفـض قائمـا كأنما وصل إلى قرار وفتح بـاب الحجرة فتدفق الصوت من أركان الشـقة يحمل ضوضـاء الصبيان، ونادى «بركات» على زوجته بصوت غليظ يخبرهـا أنه ذاهب إلى القهوة وأن عليها أن ترعى الضيوف.

وبعد أن خرج التقت «بهية» بزوجة أخيها فأحسـت بالغربة، كانت عيناها المكحولتان ونظراتها الناعسة الفاجرة وصوتها الفاتر مشـيتها المتأودة فى مبالغة تبعث فى نفـس الريفية خوفا وغربة وكان أول سـؤال وجهتـه الزوجة إليها عقب خـروج «بركات» أن قالت بلاتحية:

– جاية تزورى الست أم هاشم؟!

– لا.

فاستطردت بلهجة ذات مغزى ردىء:

– سيدنا الحسين؟!

– لا.

فقالت من خـلال ضحكة متهالكة وهى تمر كفا على كف كأنها تفتل حبلا:

– يبقى سيدى «البرمونى».. نظرة ياسيدى..

هىء هىء..

وولتهـا ظهرها فحملقـت «بهية» تفحص عودهـا وأدركت أن للمدينـة عذابهـا كما للقرية عذابها. وشـعرت كأن الأرض لم يعد فيها مكان يسع اثنين، هل هو أبوها كما قال بركات؟ هل هو الحاج «ماضى»؟ أم «حمودة» ابنه؟. أم هى المسئولة يا ترى؟!.

وأسـندت رأسها إلى الكنبة وهى جالسـة على الأرض فأخذتها سنة من النوم خيل إليها بعد أن ذهبت عنها أنها اتخذت فيها رأيا أو حلمت فيها حلما، إذ رفعت رأسها عن جانب الكنبة وهى موقنة أن «رضا» مسـئول كذلـك، ليس عن الماضى لأنـه لم يكن موجودا. وليـس عن الحاضر لأنه لا يـزال ضعيفا. لكن مسـئوليته مربوطة بالمستقبل.

* * *

obeikan.com

الأرض ومن عليها

أصبح الناس يتهامسون فى العزبة أن كل شىء قد صار ملكا لـ «حمودة» وكان «حمودة» يشعر بسرور يخالطه زهو عندما كان يصعد فوق سطح الدار فيرى حدود أملاكه بين أسوار التين وأشجار السرو، وخميلة من النخل على مقربة من الدار يقف بعدها برج الحمام.

ومع كل نظرة إلى هذه المساحة كان يستشعر زهو من فرغ من عمل شىء رائع يدل على القدرة مثل زهو صانع أو فنان مع أنه لم يصنع شيئا.

كانت الأرض هملا تنتهى بعدها ببضعة كيلومترات نحو الشمال ترعة شحيحة والذين يملكون أرضا على أطراف هذه الصحراء وشط هذه الترعة كانوا يأملون فى المطر أكثر مما يأملون فى ماء الترعة.

وكان الحاج «ماضى» يملك بضعة أفدنة هناك ظل يمدها بوضع اليد عشر سنوات انتهت سنة ١٩٣٠م، والصحراء رحبة الصدر.. قدرت على حمل أطماعه، ظل يحلم بالأرض منذ شبابه الأول فلما اشترى هذه الأفدنة بثمن بخس مما ربحه من تجارة الماشية أخذ يحمل ألواح التين الشوكى حينا بعد حين ويزرعها ليحدد بها معالم عزبته.

كان الفلاحون يرونه وقد ركب حماره وأمامه الألواح فيتضاحكون ويهمسون:

– الحاج «ماضى» معه أحجار المبانى.. لسور العزبة الجديدة.

وكم كان يلقى عناء فى نقل الماء إلى التين حتى دبت فيه الحياة. وقبل أن يشيخ ويقهره الصرع كان يلذ له أن يمشى جنب الأسوار والرمل يملأ نعليه ويستعيد ذكريات أيامه الماضية ويبتسم، ويتخايل له من بعد شبح لرجل هو الحاج «ماضى» نفسه يقود قافلة من المواشى عائدا من السوق فى حر الظهر أو برد الشتاء سائرا على قدميه بالساعات حتى إذا وصل إلى الدار استقبلته «منيرة» باهتمام الزوجة وقدمت له كل ما يريد..

كان كل شىء فى نظره يمشى إلى الأمام وكل من حوله يطيعونه حتى «حمودة» ابنه لكنه استيقظ ذات صباح على خبر كاد يطير له صوابه فلم ينم. ذلك أن زوجة وزير الزراعة قد اشترت من الحكومة أربعمائة فدان تقع شمال أرضه ببضعة كيلومترات من الجدب وعندما تزرع هذه المساحة وتعمق الترعة وتوسع فسيتغير الموقف فى أرض الحاج «ماضى».

وأصيب بأرق طوال أيام حفر الترعة، لم تكن داره قد انتقلت بعد إلى هناك، كان لا يزال فى القرية.. يتقلب طول الليل مسهدا على حشية قديمة مبسوطة على الأرض، والعمامة معلقة على مسمار، وتأخذ الحاج «ماضى» نوبة من الندم على أنه لم يتوسع فى غرس

التين ثم يتصور أن كل شـيء قد توقف وأن زوجة الوزير عدلت عن الصفقـة، وينهـض من الفراش حين يحس أن الهـواء أصبح خانقا فيخرج هائما على وجهه، ويفطن إلى أنه هناك.. يشاهد تحت ضوء القمر أو النجوم الدنيا المنتظرة ويرى أكوام التراب التى خرجت من جوف الترعة.. فيحس طمأنينة وأمنا وجهدا يناديه للراحة فيعود أدراجه.. ليغفو ساعة من الليل.

لكنـه بعد الحوادث الأخيرة يود لو أن كل شـيء عاد إلى الوراء لو يبـذل الجهد وينال اللذة كما كان يحدث فـى الماضى، وبعد أن خرجت «بهية» وابنها من العزبة وقبل ذلك بأسـابيع كان «ماضى» يحـس باهتمام زوجته القديمة وإقبالهـا عليه، فظن أنها تريد أن تكفر عن جفوتها الطويلة التى بلغت غايتها بعد أن علمت بزواجه من الأخرى.

وكانـت «منيرة» تطلق له البخور فى الحجرة وتذبح له دجاجة ليلة بعد ليلة، وكان يسـتمتع بهذا كارها حتى إذا ما جاءته نوبة الصرع فأفاق رآها وقد جلست تدلك قدميه الخشنتين بيدها البضتين فيبتسم ابتسامة الشك.

والآن قد عاد كل شيء إلى ما كان عليه وبدت على وجهها ووجه «حمودة» طمأنينة من فرغ من قضاء «المهمة».

وأطرق الحـاج «ماضى» إلى الأرض وفضـاء الحقول أمام عينيه، تذكر الليلة الأخـيرة التى قضاها فى دار «بهية» قبل أن يحدث ما حدث لها بشهور.

كانت إحدى ليالى الشتاء الجافة حين استيقظ سكان العزبة على حريق شب فى دار أحد الفلاحين. ولم يكن الأمر ذا بال لكن الحاج «ماضى» رأى فرصة سانحة للخروج. لقد كان يذهب إلى «بهية» كما يتسلل اللص فقد كان «حمودة» مصادرا لإرادته، وتخاذل حبه لها بعض الزمن حتى أصبح «رضا» بالنسبة إليه أشبه بالمواليد الذين يهرب منهم آباؤهم.

وعندما انطفأت الحريق وعاد الحاج «ماضى» قافلا إلى الدار كان الظلام والسكون يغمر الطريق والمزارع، ومر على دار «بهية» كان الباب مواربا فوجد نفسه يدلف إليه. وكانت يد «بهية» فى هذه اللحظة تدفع الباب لتقفله ولم تحس بزوجها فى الخارج ولم يستطع الرجل أن يرفع صوته فوضع عصاه بين الباب والحائط فحال بينها وبين أن تقفل، وشهقت المرأة وسألت بهمس:

– من؟

– أنا.. أنا «ماضى».. افتحى يا «بهية».

ودخل وأوصدت الباب وظلت واقفة مكانها فى الدهليز على حين سبقها هو إلى الداخل فى جلباب قديم وعلى رأسه عباءة وعضت أصبعها وهى واقفة وخنقها البكاء لكنها سارت إليه حين سمعت نداءه. وكان الدفء يملأ الحجرة وابنه غارق فى النوم تحت غطاء من صوف الغنم به خطوط وخروق أما هى فكانت تلبس جلبابا من الكستور غير معروف اللون ظهر كوعها من قطع فى كمه،

وجلس الحاج «ماضى» على الحصير المفروش وأخذ نفسا عميقا. كانت رائحة الأرز والوقود تملأ أنفة وأغراه الدفء بأن يمد ساقيه فظهر جلده الأملس القليل الشعر، واتكأ بظهره إلى الحائط وتأوه فى تلذذ كمن يتمطى.. وضحك..

أما «بهية» فقد كانت عند الحائط الآخر تجلس القرفصاء وقد ضمت فخذيها كأنها فى «دفاع»، كانت نفسها مليئة بالاشمئزاز، أحست بإحساس الجوارى بعد أن يكبرن.. كأنما كان كل شىء بالنسبة لماضيها قبل الزواج حلما أو كابوسا..

وناداها «ماضى» وسألها:

– أنت خائفة؟

فهزت كتفها

– لم يبق شىء أخاف منه. أنت الذى تخاف.

– من الله طبعا.

فضحكت مستهزئة:

– ومن «حمودة»..

وسكتت ثم أردفت:

– إننى لم أحمل حراما.. إن هذا النائم من هذا الصاحى. وأشارت إلى ابنها وإليه.. فهمس:

– هل أغلقت باب الدار؟

– وهل أنت تسرق؟

وهبت كالملسوعة:

– سأقوم وأفتحه.. وأسأل الخفير عن ورقة سيجارة لف ليعرف الناس أنك عندى..

فأمسك بذيل ثوبها ورجاها بضعف الشيخ ورغبة الشاب وخوف اللص ألا تخرج وأجلسها على مقربة منه فأخذت تنتحب.

وعندئذ انفتح باب العتاب. أخذ يمسح دموعها وهى تكيل حقائق كأنها اتهامات: إنه يرمى لهم الفتات، وابنها يذهب إلى مدرسة القرية سائرا على قدميه مسافة تحتاج إلى ركوب.

وعندئذ تحرك الغلام من فراشه.. ونادى بأعلى صوته:

– «العب ياحسن.. العب يا بو على..».

ونظر الزوجان إلى بعضهما وتحدث عيونهما عن معنى الحب.

فقد كان الأب يعرف ما بين ابنه وصديقه «حسن».، وظهرت قدماه من الغطاء فبدا عليهما آثار الحفاء.

وطلب «ماضى» من الزوجة أن تدلك ساقيه هو لأنه يحس ألما وكانت لهجته مزيجا من الحقيقة والرغبة فهزت رأسها نفيا.

– لماذا تمتنعين؟

– حرام!

ففتح عينيه عجبا:

– حرام؟!

– إن كان هـذا ابنك تكن أنـت زوجى.. أعطه حق الابن وخذ حق الزوج.

– هل جننت يا «بهية»

فردت بلهجة مرتعشة:

– لا.. تعال فى النهار.. أنت لست عشيقى.

فعض على شفته وأحس طنينا فى أذنيه، واحمر النور فى عينيه كأنه على أبواب الصرع، وغضب غضبة المهزوم فسـحب عصاه ولوح بها فى وجهها:

– تتكلمين عن العشـيق يا سـافلة.. من يعلـم؟.. ربما فعلت لو ملكت..

ثم رمى بالعصا وطوق عنقها بكفيه كأنه يريد أن يخنقها وعندئذ انبثقت مـن الماضى صورة.. صـورة قديمة لرجل دفـأه ذات صباح بملابسه الشـخصية هو أبوها. ثم صورة الحاج «ماضى» نفسه ليلة خطبة «بهية» حين أمسـك بكفى أبيها وطوق بهما عنق نفسه، ثم ضحكا.. وتمت الخطبة ليلتئذ.

كانت تقول وصوتها مخنوق:

– اقتلنى .. ليتك .. تقتـ .. لـ .. نى

وأفـرج عن عنقها، ورفع عينيه عن وجهها فسـقطتا على ابنه. كان على وجهه دلائل حلم.. كابوس..

وانخرطت الأم فى البكاء.. وأدارت له ظهرها وهى جالسة فرأى ضفيرتيها على ظهرها كلا على ناحية.

وفاجأهما صوت يصرخ.. صوت الغلام.. الذى هب جالسا وقد نفض الغطاء:

– الثعبان.. الثعبان. يا امة.. الثعـ.

واسترد وعيه، وحملق فى كل شىء، ثم همس كمن لا يصدق:

– أبويا.. آآ.. بويا.؟!

وعاد فانطوى من جديد، وفى هذه المرة سحب الغطاء الصوفى كله ليحجب به وجهه.

ولم تغمض للحاج «ماضى» عين ليلتها حتى أذن الفجر.

***

وجاءه وهو فى مكانه أذان آخر.. ردده الحاج «محمود» فى المصلى القائم على الترعة، وكان أذان العصر..

وبينما هو يستعيد ذكرياته سمع صوت «حمودة» من بعيد يصرخ بين الحقول، كان يسب ويلعن كأنما الزرع فى أرضه لا ينبت إلا بالغضب والهواء يحمل إليه صوته القاسى. ثم عاد السكون وارتفع خوارثور وأنين ساقية فتخايلت للحاج «ماضى» صورة ابنين، أحدهما غائب لا يعلم كيف حاله الآن والثانى «حمودة» أيام كان ابن ثمانية أعوام حين خطف زميله سليمان شملة خادم الضريح فى أول النهار من رمضان وفى الوقت الذى كان الخادم لنصف الكفيف يطارد الغلام ويصرخ كان «حمودة» يقضى المهمة التى اتفقا عليها.

وحين رجع الخادم فى المساء لينير الشمع فى ضريح ولى الله وجد كل شـــىء قد ســـرق فأدرك ســـر ما حدث صباحا، وفى هذه اللحظة كانت مجموعة من الصبيان يعبثون بالشموع على طول الحارة.

وقال الحاج «ماضى» فى نفســـه: وقد عمل سليمان مأساة أخرى، فهو الذى تسلق النخلة وهبط ساحة الدار على «بهية».. ثم سكت، ثم تســـاءل: لكنها كانت تتكلم عن العشق؟! أليس جائزا أن يكون كل شىء صحيحا؟

وفى هذه اللحظة ناداه صوت متعب، كان صوت أحد الفلاحين.. وتقـــدم من الحـــاج «ماضى» ووضع فى يده شـــيئا كما يضع قطعة من النقود وحملق «ماضى» بدهشـــة فقد كان فى كفه ضرس كســـر على أثر لكمة.. ســـددها «حمودة» إلى الرجل أثناء العمل، ومضى الفلاح فغســـل فمه وحمل الضرس إلى الحاج «ماضى» فى الوقت الذى كانت فتاتان من الفلاحات يتغامزن بعيونهن ويقلن إن زوجة «المضروب» لم ترض «للضارب»، وقال الحاج «ماضى» باسما بعد أن عرف كأنما ليخفف عنه الإصابة: «غدا ينبت لك غيره مثل بنتك بدور».

فرد الفلاح فى غيظ: لا والله، الواجب أن تقول مثل ابنى «حسن» سأقدم هذا الضرس هدية له.. سلام عليكم يا عم الحاج!

* * *

من كان منكم بلا خطيئة..

وعجبت «بهية» حين رأت بيت أخيها مليئا بالذرية والخيرات وضيق التنفس. فأحست أن شيئا ينقصه.. شيئا هاما غير ما تراه..

كان نصف الأولاد يحملون لقب والد ونصف آخر يحمل لقب والد، والأم واحدة تبدو فى سن الزوج، وبياض عينيها الحوراء يحمل حمرة مريبة حملقتها كعين طال بها السهر وزال منها الحياء.

وهى فى واقع الأمر سر نعمة بركات. وكل شىء تحت يده آل إليه بالبيع والميراث عن زوجها الراحل صاحب القهوة السابق الذى كان «بركات» يعمل معه عقب هجرته من الريف.

ولما مات ذلك الزوج رشحت الإشاعات صبيه القديم للزواج من أرملته، وتم كل شىء بهدوء بعد نصف سنة كأنما الحوادث كانت تعد له من قديم. وهذا سر السيطرة التى يقع تحتها «بركات» فى بيت الزوجية لعلاقة اشترك فى نسجها الإثم والمنفعة والضرورة ثم.. العقد! حتى كانت رائحة البيت بالنسبة لهذه الريفية الوافدة مثل الرائحة التى يشمها المرضى من داخل نفوسهم. وأحست أن شقيقها فى رخاء لكن ابتسامة واحدة لم تنطبع على فمه طوال الأيام الستة التى أقامتها فى البيت.

وطـول النهار كانت تقـوم بأعمالها فى صمـت. بالأعمال التى يمكن لريفية مثلها أن تؤديها فى المدينة.

وكانت لا تقوى على أن تنظر فى عينى زوجة أخيها. وتعجب لماذا لا ترى فى رأســها شعرة بيضاء. وبعد منتصف الليل تسمع وقع أقدام أخيهــا وهو عائد. وقد تتناهى إليها ضحكات هلوك من زوجته وهما على العشاء المتأخر فتكتم أنفاسها وابنها إلى جانبها وتصمم مائة مرة على أن تطلب فى اليوم التالى من أخيها شـيئا غير الإقامة هنا.. وفى الصبــاح عندما ترى وجه ربة البيت قبل أن تطلى بالمســاحيق وترى أثــارا كأنها مكاره أو بلايا طبعت عليه – يشــل الخوف إرادتها فلا تتكلم وتستســلم للعمل الصامت الذى يشــبه عمل الأســير. ولا يلبث ابنها أن يذهب إلى خاله فى القهوة يقضى اليوم فى مســاعدة «عزوز» أو فى الجولان غير بعيد حتى لا يضل الطريق.

وكان «بركات» يؤمن بينه وبين نفسه أن حياته كان من الممكن أن تســير على غير هذا النمط. فهو يوم خرج من القرية كان مثل التائه فــى الصحراء يقدر أن كل خطوة إلى الأمــام ربما أبعدته عن الغاية. قلبه شديد الحساسية ونفسه كثيرة المطالب. ولما استقر به المطاف فى هذه القهوة ورأى وجها من الحياة فيه غرابة ومخاطر تذكر أن الذين يعرفونه فى الريف لم يشــفقوا عليه عند الغلطة الأولى، وأن العودة إليهم مســتحيلة، ولذلك أسلم أمره لصاحب القهوة. وشهد المكاسب غير المشــروعة التــى تدخل إليه مــع نظرات الترقب فــى العينين

المنتوفتين. وشـيئا فشيئا زال عنه القلق وشمله هدوء من تعود النوم فى العراء – ولبس الصوف والحرير.. والخواتم الذهبية.

وملأ الشـباب عوده المشوق وغابت عنه طراوته المعهودة وحلت محلها صلابة المغامر.

غير أن اللون الطبيعى لنفسه كان لا يزال كامنا خلف هذا المظهر وكان مـن الممكن أن يحدث تحول فى حياتـه لو انتقل إلى جو آخر لكن.. حدث فى إحدى الليالى أن برز مجهول من المهربين المنافسين من إحدى خرائب الأوقاف وطعن صاحب القهوة بسكين فى كتفه من الخلف ثم فر فى الظلام. ولم يمت الرجل فقد سمع الناس استغاثته ونقل إلى المستشـفى فظل بضعة شـهور حتى عـاد بعض الحياة إلى ذراعه اليمنى لأن الطعنة أحدثت بها شللا.

ووقع على «بركات» عـبء العمل كله. وتملكته فكرة الإخلاص بمنطق الريفى وحماس الشـاب فانسـجم مع العمـل الإضافى غير المشـروع الذى يديـره صاحب القهوة بالنيابـة. وتحول الدخل إلى جيبـه وزادت البركة.. وأحسـت الزوجة أن شـيئا جديدا يطوف بحياتها فتوددت إليه وشـجعته.. ثم منحته الشرف الذى منحته ذات ليلـة إحدى الملكات لحارسـها الخاص. غـير أن حارس هذه السيدة لم يكن كحارس الملكة فقد شعر بالندم وتأنيب الضمير.

وبمـرور الزمن أخذت العادة قوة الطبع وكان الزوج لا يزال على قيد الحياة ولكنه ليس فى الأحياء.

ثم تزوج «بركات» هذه المـرأة بعد وفاة زوجها وامتدت العلاقة التى اشترك فى نسجها الإثم والمتعة والضرورة منذ سنوات.

* * *

ظل «بركات» يسـتعرض هذه الحوادث طول الأسـبوع الأول من إقامة أختـه فى بيته. وكأنما كان يذكـر تفاصيل ما وقع من خلال صدى حكمة قالها المسـيح «من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بأول حجر». وتذكر كيف كان مشـدودا إلى مصيره بقوة لا يعلمها وكيف أنـه حتى الآن لم يصبح قتيلا ولا سـجينا، وكيف أن الأولاد الذين يعيشون فى بيته أنتجتهم امرأة فى ظل ثلاث علاقات من رجلين؟

ولا يحسـن العزاء مثل الحزيـن.. لذلك فإنه عفـا عن أخته – بصرف النظر عن الواقع – بطريقة فيها روعة بعكس ما فعل والده معه لو أنه عفا بحق.

وقبل أن يخرج إلى القهوة دخل عليها فى هذه الليلة..

كانت عيناه منتفختين وضيق صدره يظهر فى تنفسـه وتحسسه لـه. ورائحة التبغ مـع ذلك تفوح من فمه.. وجلس على الكرسـى وانحنى نحوها وحملق وقال:

– من اليوم لك حجرة مستقلة «يا بهية»..

فنظرت لا تصدق. فاستطرد:

– لتكونى حرة. وظل ينظر إليها نظرات تذيب الحديد. وتنفس ملء رئتيه ثم أكمل:

– هل تعرفين معنى الحرية؟ الحرية تحت مراقبتى.. وحجرتك قريبة من القهوة فى أحد بيوت الأوقاف.

ونهض متكاسلا وهو يقول وظهره لها:

– رتبى نفسك يا حبيبتى..

* * *

ولم تصدق بهية كل ما رأت. أصبح لها حجرة يظللها الأمان، فيها سرير وأدوات منزلية. وعند ارتفاع الضحى يطرق «عزوز» الباب أو الشباك ليقدم ما بعث به أخوها من طعام.

وعندما يستلقى المتعبون وتدب الراحة إلى أجسامهم يتذكرون تفاصيل المتاعب الماضى منها وما قد يضمره الغد.. نعم. ودخل «بركات» على أخته بعد أسبوعين، كان يحمل تحت إبطه شيئا ملفوفا، كشف غطاءه وهو سعيد وقدمه لـ «بهية»، كان صورة كبيرة له عملها حديثا واستقبلتها الأسرة الصغيرة بحب وفرح، ووقف «بركات» على كرسى منخفض وثبتها على الحائط. وأحس بالزهو وهو يبتعد عنها مراقبا نظرات الفرح والاعتزاز فى العيون من حوله. لعله كان مشاقا إلى حب بلا أشواك فيه شىء من الروحانية. كرغبة السكران فى الابتهال إلى الله، فقد كان المكسب الحرام والحياة الزوجية الثقيلة الوطأة دافعا خلق فيه اللهفة إلى عمل شىء فاضل. أو ضرورة الإحساس بالمشاعر النظيفة. كحنين الساقطات إلى الأمومة.

وسأل أخته ببشاشة:

– هل فكرت فى مستقبل ابنك؟

فردت بحزن:

– وهل بقى له مستقبل؟

فقال وملامح تكسر وجهه:

– لا تحزنى.. سأجعل «عزوز» صبى القهوة يعلمه.. وبعد أن يتعلم أطرد «عزوز».. وأكمل بمرح وأعينه فى وظيفة «عزوز» الخالية. هه.. موافقة؟

فردت بالصمت.. وعندئذ أحست أنها تهاجم مهنة أخيها وهى تأكل منها، وهمت أن تتكلم لكنها رأت على وجه «بركات» معانى لا يدركها أحد كلها سهوم. ولمعت عينا ابنها السوداوان ببريق خاطف. وذكر فى وهلة واحدة الدنيا التى تركها فى الريف: المدرسة والمزرعة و «حسن» و «بدور» وحقا مقدسا.. وأبا لا يزال على قيد الحياة.

ونظر إليه خاله فرآه متشاغلا يتأمل صورته التى علقها على الحائط ولم يلبث «بركات» أن جره بعنف وغمر وجهه بالقبلات وقال له:

– ستذهب إلى المدرسة يا «رضا».. لا تخف. خالك لن يجعلك مثل خالك.. ولا مثل «عزوز».

وعندئذ بكت «بهية».. كأنها زايلها التخدير الطبيعى الذى يصحب الكوارث. وكان «بركات» يحملق فى السماء من خلال النافذة

محاولا أن يفسر تلك الظواهر المتوالية التى وقعت لهم مع أغنياء الريف كأنما كان هو وأخته وابنها نقطا من الزيت على سطح إناء من العمل. محال أن يمتزج الكل بحال..

وهز رأس يؤكد هذا المعنى وأسنانه على شفته السفلى وتحسس تلقائيا حافظة نقوده فتذكر أنها مليئة فهتف كمن أفاق:

– ولا يهمك يا «بهية».. ولا يهمك يا «رضا».. تتعدل حالا تتعدل..

وخرج للتهريب..

وبعد أن خرج أحس «رضا» بحاجة إلى النوم. أحس أن رأسه ثقيل. فتمدد يحملق إلى الحلى النحاسية التى تقف على كل عمود من أعمدة السرير كثمرة كمثرى. وطنين الوابور يملأ سمعه، وأمه تخرط البصل وفى عينيها دموع. وطافت به ذكريات العزبة. فأحس فراغا. وتذكر «حسن».. برز إليه من خلال الحوادث بشكل قاهر. وتنهد الغلام فى اللحظة التى كانت فيها بهية «تطش التقلية» فالتقى عصير الطماطم بالسمن المقدوح..

كم كان يحبه.. وفى الأيام التى لا عمل فيها كان يلتقى بحسن أمام كوخ أو على شاطئ ترعة ويعلمه ما تعلم فى المدرسة. فأضاف بهذا إلى معلوماته القليلة معلومات جديدة يوما بعد يوم. وكادا يطيران من الفرح يوم بدأ حسن يقرأ فى أحد الكتب.

وكاد يمسكان السماء بأيديهما. وأصبحت كتب «رضا» كلها ملكا لصديقه وفاجأهما ذات يوم «حمودة» وهو راكب على بغلة.. فلم يشعر به الغلامان إلا وهو واقف. وكان المساء قد نزل. ونزل من فوق البغلة وأقبل عليهما بوجهه الأحمر. وأحس الغلامان بالخطر فدخلا إلى الكوخ المهجور.

وعندئذ تقدم وركع وضربهم بعود من الخيزران، ومر عليه أحد الفلاحين فحاول منعه. فنظر إليه «حمودة» وقال بهدوء جارح:

– سأتركهما.. لكن اسألهما أنت.. لماذا.. يلجأ غلامان فى مثل سنهما إلى مثل هذا الكوخ.. فى مثل هذا الوقت؟

وعندئذ بدا على الفلاح حرج وكدر، وتناول «حمودة» الكتاب ورمى به فى الماء وأخذه التيار.

وعلى الرغم من هذه الذكرى فإن «رضا» ينتظر خطابا من «حسن».. إنه قادر على أن يكتب شيئا. وتمنى أن يراه ذات يوم فى القاهرة. فى بدلة نظيفة. ثم أغمض جفنيه.. وسأل نفسه بصوت يكاد يكون مسموعا:

– خلاص؟.. ممنوع السفر لبلدنا خلاص؟.

وأحس بألم لم يعرف سببه لكن قلبه خفق منه، كتعبير الرضيع بالبكاء عن كل رغبة.

وأحس بالظمأ فهم أن يقوم ليشرب لكن شيئا مثل الخدر أبقاه فى مكانه وعاودته ذكرى الترعة والماء الذى يخالطه الغرين.. وخميلة

البوص وأكداس الحطب، وطاحونة الهواء التى طالما صنعها حسن من الغاب وأهداها إليه.. ثم الطنبور.. والشوك الذى ذهبت «بدور» لتجمعه فدخلت فى رجلها الشوكة.. «آه.. آخ.. آه..» وتتابعت الصور حتى جاء دور الغلام الذى عيره بأمه. فنظر إليها وسأل نفسه فلم يجد جوابا إلا أنهم هنا عقب تلك الحوادث، لم يكن قلبه مصدقا شيئا مما نسب إلى أمه. وفجأة شهق بالبكاء، ومن خلال الدموع اختفت صورة خاله وحلت محلها صورة ريفى عجوز أحمر الوجه ضيق العينين دقيق الشفتين. يئن إذا ما أحس بالحرج كأنه يحمل شيئا ثقيلا.

ونظرت إليه أمه وهى فى مكانها وسألته عما يبكيه، فلما لم يرد قالت فى نفسها: «ولماذا ألومه؟.. يجب أن نبكى».

***

وبخط ملىء بالأخطاء، وقلب ملىء بالفرحة تلقى «رضا» خطابات من صديقه فى القرية على عنوانه بمدرسة البرامونى الراقية حيث ألحقه خاله مع أحد أبنائه..

وبروح الابتكار التى سادت طبع حسن أخبره عن شيئين هامين: أولها أنه يواصل تعلم القراءة والكتابة فى كتبه وبواسطة عادل ابن الحاج محمود. وثانيهما أنه احتفظ بالضرس الذى أسقطه حمودة من فم أبيه على سبيل الذكرى، دقة على باب الدار كما يفعل الفلاحون على سبيل الفأل حتى لا تتساقط بقية الأسنان.

وعندما دخل الشتاء الأول على «رضا» فى القاهرة كانت الأمور على ما يرام، فقد كان يتأمل الأرض اللامعة المرصوفة عقب الأمطار ويتذكر حسن، وكذلك المشوار الطويل الذى كان «رضا» يقطعه كل يوم إلى المدرسة فى أقرب قرية، ونعل الحذاء المخروق الذى يتسرب منه البرد والطين. وتذكر يوما شاتيا.. حالت فيه بركة من الأوحال بينه وبين أن يعبر الطريق. وعز عليه أن يرجع بعد أن قطع المسافة، وأصبح أقرب إلى القرية منه إلى العزبة، وفجأة رأى حسن.. وكان ذاهبا إلى الحقل وعلى رجليه الحافيتين شىء مثل قشر السمك، وأقبل عليه وحمله على ظهره.. وخاض به الأوحال حاملا أدواته المدرسية فى حجره أيضا حتى لا تسقط.

لم يكن يخطر على باله إلا الأصدقاء، أما أبوه فقد صار أشبه بذكرى قديمة فى رأسه لمعمر لم يكن يذكره بوضوح إلا إذا سمع أحد يلعن والد أحد. عندئذ فقط يتذكر كلمات «الأرناؤوطى – الإنجليزى» التى كان يشتم بهما فى مدرسة القرية.

وذات مساء بينما كان وأمه ساهرين تناهى إلى سمعهما عويل امرأة من الجيران وعرفوا بعد قليل أن زوجها قد مات، ولم يكن «بهية» تعرف الزوج ولا الزوجة، لكنها انخرطت فى بكاء حمل ابنها على أن يسألها: هل تبكين لو أنك علمت بوفاة أبى. فنظرت إليه بدهشة ومسحت دمعها ثم قالت له:

– نعم.. لأننى أخاف عليه من الله.

فقال «رضا»:

– وماذا يهم؟. إن خالى خير عندى من مائة أب..

فنظرت فى عينه، لكنها لم تستطع أن تكشف ما إذا كن ابنها يعرف حقيقة مهنة خاله؟

وتذكرت الحرام والحلال، تلك الكلمات التى كان أبوها يرددها ويتشدد فى تنفيذها وهو الساعد الأيمن فى غش المواشى مع الحاج «ماضى»، ومن هذا المكسب وقبل أن يعودا من السوق يجلس هو وصديقه إلى بائع العجوة. وعندما ترجح كفة الميزان لصالح والدها يبدى تحرجا وخوف الله، فى الوقت الذى يكون الحاج «ماضى قد فتح حكاية مع البائع ليأكل ويتكلم حتى يملأ نصف بطنه.

وتصورت ذلك اليوم الذى ينكشف فيه أمر أخيها. وعندما حكى لها ذات مساء عن الصعوبات التى لاقاها عقب الهجرة أحست أنها هى وابنها سيتعرضان لمثل هذه الكوارث. وكانت الليلة شاتية والمطر يسح فى الحوش، وأخوها قد أقفل المقهى فى وقت باكر وعرج على مسكنهم. ولما وصف لها الليلة التى اعتدى فيها على معلمه القديم وكيف نقل إلى المستشفى فى قميص من الدم، أخذها خوف جارف. ثم سكت «بركات» واستمع إلى وقع المطر. وقال لـ «بهية» كأنما يحمل إليها حكمة:

– تعرفى يا أختى.. الذين يهاجرون من الريف إما فى السعداء وإما من الأشقياء.. الفقير يأتى للبحث عن عمل.. والغنى يأتى ليتعلم أو ليتمتع.. بس.

ورد صوت طازج كأنه قطعة من لحن:

– صحيح يا خالى؟ فاستطرد:

– أما معظم الذين يقضون كل حياتهم فى الريف فهم من لا حيلة لهم.

وظل صمت.. ومن تحت السرير فاحت رائحة سمك وتوابل ممزوجة برائحة الرطوبة وكان وجه «بركات» المنهك المضنى جامدا، عليه دلائل فكرة. وقطع الصمت فجأة، وقال كمن هبط عليه الوحى:

– اسمع يا «رضا».. أعتقد أنك ستأخذ حقك من الإنجليزى فى يوم من الأيام.. لكن.. آه.. بطريقة.. «وشرد» بطريقة؟. يعلمها الله.. وضحك طويلا ثم سكت.

وكان الليل ساكتا، وكل شىء فيه يطلب دثارا من برد الموسم.. حتى الحوائط كان عليها دلائل البرد.

وسرح فكر كل من ثلاثتهم إلى ناحية.. فتمنت «بهية» أن تمص دم «سليمان».. وتمنى «رضا» أن يدخل وطنه فلا يرى وجها أحمر.. وتلقاه «بدور» بصدر ناهد وعينين نجلاوين، وابتسامة حبيبة. ويلقاه «حسن» بين ذراعيه ويجريان حتى يقطعا طولا وعرضا سبع مرات كما يطوف الحجاج.. وتمنى «بركات» أمنية غريبة.. لم يكتمها فى نفسه، بل رفع صوته كمن يتكلم وهو يحلم:

– يارب أعيش لأصونكم من التعاسة..

وبـدا على الوجـه المدمن حنان عميق، ورأت فيـه «بهية» رقة الريفى القديم الذى عرفته منذ عشـرين سنة، فنادته باسمه كأنما تخاف عليه من الإغماء، فإذا به يقول برعب:

– معلهـش.. أصلى تذكرت قتلة المعلم خميس.. كانت ليلة مثل هذه الليلة.. «ظلام ومطر.. ومن الخرابة هجم عليه خصمه بسـكين وكان يـوم خميس» «وضحك» وأصبح النـاس يقولون: المعلم خميس ضرب يـوم خميس.. «وتنهد» وكلما مررت علـى الخرابة وأنا فى طريقى إلى بيته.. أحس شـكة فى كتفى كأنها سـن سكين فلا أنظر خلفى «وأكد آخر كلمة بهزات سبابته».. وعندما سكت كان الجهد باديا عليه. وأدرك «رضا» وأمه أى نوع من الخوف يملأ قلبا منحهم الاطمئنان، فشعر مرة أخرى أن والده سر هذه المآسى وكانت «بهية» تسـأل الله سؤالا: لماذا أعطى هذه النعمة للحاج «ماضى»؟. ولم تلبث أن اهتدت إلى الجواب لعله يعذبه بها! وإذا كان «رضا» يحلم بتلك الأرض التى يحدها التين فإنه حلم لا يخلو من اللذة.

وناداها «بركات» برقته القديمة التى عرفتها:

– بهيـة.. إذا قتلـت «لا تصرخـى.. اسمعى منى». فاشـتغلى بأى عمل شـريف ولو حملت القصارى فى أى مستشـفى. فنحن فى المدينة.. يطاردنا القانون ويحمينا القانون، أما فى الريف.

ومن خلال ضحكته أكمل: أنت عارفة الباقى..

والشمس تشرق كل يوم..

بدت ملامح الشباب على وجهه المستدير الأسمر ذى العينين السوداوين اللتين هما صورة من عينى «بهية» فقد بلغ «رضا» ستة عشر عاما، واشتغل فى إحدى المطابع عاملا فى جمع الحروف.

وكان اختياره هذه الحرفة بإرشاد من ناظر المدرسة حين بدأت هزات حقيقية تدرك حياة خاله «بركات» أولها «ستة شهور» قضاها فى السجن انتظارا للحكم عليه فى إحدى قضايا التهريب.

وفى هذه الآونة عرف «رضا» طعم الأبوة، ولا يزال يذكر منظر خاله وهو مقود إلى غرفة الاتهام، يمشى بسرعة منهكا لاهثا شاحبا، أحمر العينين. ولم يعرفه «رضا» إلا بعد أن كلمته زوجته. كانوا يجتازون وراءه الممر الطويل الذى يبدو وكأنه يؤدى إلى الموت فى ذهول من ركب البحر للمرة الأولى فأخذه الدوار خصوصا عندما رأوا النظرة الغجرية غير المبالية والشفة المسترخية عن فم جميل، وكلام جرىء لزوجة «بركات».

وأحسوا أنها تكلم رجلا أصبح غريبا عنها، وبدا على وجه «بركات» تحرجه القديم ورقته الفطرية.

وكان حرمانه من «عادة كل ليلة» وهو فى السجن سببا هاما فى شحوبه وشرود نظراته.

ووقف أمام القاضى ثم أعيد إلى السجن. ولم يكن ابن أخته قد اشتغل بعد، كان لا يزال تلميذا. وأتاحت له الظروف فى هذه الفترة أن يذوق هو وأمه طعم شىء جديد.. هو الجوع، وعرفوا أن له فى المدينة وقعا حادا أشد من وقعه فى القرية حيث لا حقول ولا حدائق ولا نباتات برية.

وذهبت «بهية» إلى بيت أخيها تاركة ابنها فى الغرفة الخالية من الأثاث.

كانت تصعد السلم وقلبها يخفق. وجاءها خاطر مبهم شديد الاستحالة ضحك له قلبها وقد قاربت باب الشقة. هو أن تجد أخاها وقد أفرج عنه وعاد. ووقفت تكلم نفسها مستندة إلى ركن مستدير كقبلة المسجد.. وطفرت دموعها. وخيل إليها أن صوت رجل يأتى من وراء الباب الواقع على بعد عشر درجات لم تصعدها بعد، فآلت على نفسها أن تسجد عند قدميه وتقبلهما، وتطلب منه أن يسير فى طريق آخر.

وبلعت ريقها ودمعها وواصلت الصعود، وقبل أن تطرق الباب انفتح بعجلة وكاد يصطدم بها «عزوز» وهو خارج يلعق شفتيه ويمصمص كمن أكل شيئا حلوا، ووراءه زوجة أخيها تهدهدها ضحكة تهز صدرها.. والوقت ظهر، والجو ملتهب..

وتجمد الموقف كأنه على شاشة: توقف عن الحركة.. ثم تحرك بشكل محموم. فقد حملق «عزوز» ذو الوجه المستطيل بنقطتين من الوشم على الذقن وسفح الأنف. وذو التسعة عشر عاما.. حملق فى «بهية» بذهول وكراهية ونزل سريعا، والتقت عيون المرأتين، ولم تستطع الريفية أن تكتم ما بها فبكت ولم يسع الأخرى إلا أن تضحك، وسألتها وهى تدعوها إلى الداخل:

– هل أنت أتية للعزاء، لم يمت عندنا أحد.

وكانت فى حقيقة الأمر آتية للغداء. فجلست على وسادة فى الصالة وأمامها الزوجة، وقد مدت على الأرض ساقين تغريان الشيوخ، وفتشت فى جيبها حتى عثرت على قطعة من اللبان اشتركت فرقعتها مع نظرات عينيها فى عذاب «بهية»، وسألت نفسها: «لماذا تزوج أخى هذه المرأة؟» لكن الجواب كان حاضرا، فقد تذكرت الحاجات والشهوات. الحاجة التى ألجأتها هى نفسها إلى الجلوس فى بيتها والتى زوجتها من الحاج «ماضى» والشهوة التى..

واستغفرت الله، وحاولت أن تنفى ما دار بظنها عن «عزوز» وهى التى خرجت من وطنها متهمة بريئة.

وعندئذ أفاقت على صوت الزوجة وهى تقول فى تحد مثير:

– انت صايمة يا حبيبتى؟

– لا. لكن لماذا هذا السؤال؟ لسنا فى رمضان!

فردت من خلال اللبانة:

– أحسست أنك تريدين أكل «عزوز»

– أنا؟

– يعنى أنا؟

– ولا أنت.. أنا.. آتية لأسأل عنك فى غياب أخى.

لأن العكس غلط. وكانت لهجتها مسالمة، وساد بعدها صمت. لم يكن فى البيت أحد إلا إن كان نائما فى الداخل، وظهر على وجه الزوجة ملامح قضية مقنعة. وأحست «بهية» أنها على وشك أن تتلقى لكمة فهمت بالخروج، ولكنها استبقتها وقالت لها:

– قولى لى لماذا لا تذهبون إلى بلدكم.. بلغنى أن زوجك من الأعيان، ومريض أيضا.. وهذه فرصة.. وغدا يموت.

– .. ..

– آه.. آخ «وتمطت» تشتكى فى دلال:

– ولا فرصة هنا.. كما تعلمون.. لكن.. صحيح خرجت من البلد بـ.. لـ.. آ..

وأدركت «بهية» أنه من الضرورى حدوث هذا فودت بينها وبين نفسها أن لو كانت ذلك حقا، ليتها عملت ما اتهمت به..

وحين كانت تهبط السلم أحست بالدوار، والدموع تحجز عن عينيها الرؤية الصريحة، وتذكرت منظر «بركات» الفزع المبهدل وهو يطلب من زوجته أشياء يبدو أنها غريبة، وقررت أن يتعلم ابنها صناعة ما، فإن دوام هذه الحال غير ممكن.

وفــى آخر الحــارة رأت الخرابة التى حدثهــا عنها أخوها فى ليلة شاتية فذكرت مصرع المعلم «خميس» وتمنت لأخيها أن يخرج بالســلامة، أما هم فإنهم سيعيشون لكنها أحست أن قدرا غير ظالم يتربــص لأخيها فقد رأت «عزوز» يملأ مكانــه وبدت عليه مظاهر الراحة والمرح والرخاء.

* * *

والجوع قــوة لا تعترف بالقيم.. فأخرجــت الأم من مخبأ وراء صورة أخيها شيئا أخذه ابنها وانصرف.

ومشــى يقلبه فى الطريق.. كان خاتم خاله الذهبى.. تصوره فى اليد المســتطيلة التى طالما قدمت إليهم حنانا قبل أن يبيعه، وقالت له أمه إنه دسه فى يدها وهو فى المحكمة وهمس لها بما لم تسمعه حين كانت زوجته بعيدة مشغولة بالحديث مع الناس.

الأيام كانت أقوى من قدرتهم والشمس تشرق كل يوم باحتياجات لا تقبل التأجيل، وحين يســتلقى الابن والأم على الحشية بعد بيع السرير كان الســقف يبدو عاليا، نعم، ولم يكونا يتحدثان كثيرا.. كانوا يخافون أن تغلبهم الدموع.

ولأول مرة فى تاريخ حياة الابن يحس شــعور المحاصر أما قبل ذلك فقد كان يحس بإحساس اليتيم والدنيا أمامه ملجأ يحمل لافتة

علـى كل ركن. أما الآن فقـد تأكد لديه أنه لا ينتمى إلى أحد ولا إلى وطن ولا إلى أسرة.

ولم يكن يعرف فى هذه الليلة حين دهمته هذه الأفكار أهو نائم أو غير نائم وكل ما عرفـه أنه فتح عينيه فوجد المصباح المعلق على الحائط يلفظ أنفاسـه وأمه جالسة على الحشية فى المكان الذى تنام فيه كمن شـبع نوما ثم استيقظ. وقام فى صمت فشرب وعاد وجلس إلى جوار أمه. لم يكن قادرا على مناقشة هذا الشعور: «لماذا هو ميال إلى الحساب أو العراك؟» كبقايا الكتائب المهزومة تتبادل الاتهامات فى العادة. وجلس هو الآخر حيث ينام فقالت له أمه:

– ارقد يا حبيبى.

فرد فى جفاف:

– لا أريد أن أنام، أريد أن أتكلم، أنا محتاج إلى الكلام أكثر من حاجتى إلى النوم. فقالت بفتور:

– تكلم.. تكلم..

– لماذا خرجنا من بلدنا؟ لماذا جئنا إلى هنا؟

وشعرت كأن مطرقة هوت على رأسها ونظرت إليه ثم إلى المصباح الذى كان مختفيا وأتاح لها الظلام أن تتكلم:

– هل أنا مسئولة عن ذلك؟ لقد مرت ثلاث سنوات فهل تستطيع أن تذكر الحوادث؟ أنا.. أنا..

واختنق صوتها فلم ترد بعد ذلك. أما هو فرجع إلى ذكرى الليلة التى لا تنسـى والضجيج الذى ملأ الدار والسـفر ونظرات خاله إلى

أمه حين رآها. وشعر أن صدره يضيق وأنه فى حاجة إلى نسيم الريف وهواء الحقول، أما هنا فإنه يستنشق هواء مليئا بتراب الفحم.. كأنه أسود.. لكنه مع ذلك يشعر نحو خاله بالحب، فقط لو أنه عمل شيئا واحد لكان فى نظره آية للكمال. لو لم يكن زوجا لهذه المرأة لكان أحسن رجل.. وفجأة صدمه شىء فشعر كأنه سقط فى حفرة مظلمة والطريق خال تماما، وعليه وحده أن ينقذ نفسه، ورفع صوته فى حركة عصبية قائلا لأمه:

– سأسافر إلى أبى.. سأسافر إليه وأسأله عن سر هذا العذاب، آه.

وردت عليه باللهثان، أحست أنه لن يرجع إليها إن فعل، وإذا رجع فبوثيقة من الخزى تدمر أيامها، وأحست أن الجوع شىء يمكن احتماله.. والموت أيضا، لكن المخاطر الجديدة التى سيتعرض لها ولدها هزت كيانها هزا، فتوسلت إليه وهى تتحسس فى الظلام الطريق إلى رأسه:

– إن كنت غالية عليك فلا تسافر.. لا.. لا تسافر يا «رضا» سيقتلونك هناك.

وشعر بلوعتها مضاعفة.. لم يكن فى الحجرة نور. وفكرت فى إشعال المصباح لكنها رأت الظلام أحسن.. وأحيانا نحتاج إلى الظلام. واقتربت منه حتى حضنته فسمعت وجيب قلبه وشمت رائحة عرق خفيفة كان أشبه بشىء تفتحت عنه أكمام الرجولة وضغطت عليه. كان فى حسبانها أنه على وشك أن يضيع، وبدت لها الدنيا

صغـيرة. صغيرة. وذكرت ليلة عرسـها بين هـذه الظلمات والحاج «ماضى» جالس على السـطح فى ليلة مقمرة يحكى لها عن خوازيق السوق حكايات ويضحك فى سعادة عارى الرأس، فى جلباب أبيض وهى بين يديه مثل قطة أليفة، وانتفض الابن بين يديها:

– لابد من السفر، أريد أن أموت..

– خذنى معك..

فنفخ فى الظلام..

– لا.

– لماذا؟

فصرخ محتجا كمن لا يريد ألا يجبر على قول شىء معين:

– قلت لا يعنى لا..

فلجأت إلى حيلة الأم:

– وتتركنى وحدى؟

– لست وحدك، غدا يخرج خالى.. وافرضى أنك وحدك.. فإننى.. أنا .. آه..

وعاد يبكى فى الظلام، تتخايل أمامه صور أهمها صورة أبيه على سرير فى حجرة عليا ينظر إلى حدود الأرض كأنه خلقها وصور بغلة تثير الغبار على الطريق وعليها حمودة وقد سقطت الشمس فألهبت وجهه الأحمر، وصورة والد «حسن» الذى التقط ضرسه فى كفه عقب لكمة من «حمودة» والدنيا التى لا تعترف به، وصورة «سـليمان»..

والشوكة.. وكأن ذكريات هذه الليلة كانت خاتمة المطاف، فانسحب من تحت ذراعى أمه واستلقى فى الفراش حتى استيقظ على صوت «عزوز» ينادى من تحت الشباك قبل الشمس:

– «رضا».. «رضا».. هل تريد زيارة خالك؟ أنا ذاهب إليه اليوم.

فرد عليه بفتور من وراء الزجاج المغلق:

– لا.. اذهب أنت.. أنا أيضا أعرف الطريق.

* * *

وسمعت أمه فى كلماته الأخيرة نبرات شخصية جديدة.

* * *

obeikan.com

حساب الملكين

لم تكن صحة الحاج «ماضى» فى تقدم ولا تأخر، كشىء ثابت.. مثل كائن لا يجوز عليه الموت. وعقب نوبات الصرع التى تعتاده فيلازم الفراش كان ينظر من الشباك، وأحس أن الموت بعيد عنه وأنه أيضا غير مرغوب فيه، ويزحف إلى السبعين فى دار عارية من الحنان وخاوية من الحب.

وتذكر الثور الأبلق الذى خدم فى حقوله نيفا وعشرين عاما وكيف أنه مرض بعد أن أدركه الهرم فعاده البيطرى ولما قهرته الشيخوخة ذبحوه..

وتحسس ساقيه المملوطتين من الشعر وفخذيه العاريتين من اللحم وتذكر كم حمل عليهما ابنه «حمودة». وأخذ يحسب: كم مرة حمله. ووجد نفسه يعد.. ألف.. ممكن.. ألفين.. ممكن.. مرات لاحصر لها.

– حمله فى الحر وفى ضوء القمر، وصعد من أجله النخلة فى الظلام ليحضر رطبا، وأمسك ليلتها بذيل ثعبان كان على أحد العراجين ولولا الشجاعة لسقط. ومع ذلك نزل وصعد نخلة أخرى من أجل «حمودة» ابن السبعة أعوام.

وأم «حمودة» تشمئز من ملابس زوجها فلا تمسكها ولا تغسلها. ثم تذكر ماضيا بعيدا، يوم كان عائدا ببعض المواشى ظهيرة يوم صيف فخرج عليه من حقول الذرة رجل ملثم احتضنه فجأة ونزل به إلى حفرة على رأس الحقل وكفه على فمه فى الوقت الذى سحب فيه المواشى رجل آخر وتركوه فاقد الوعى بضع ساعات، وكتم الحادث حتى لا تضحك منه الناس، ومع ذلك تسرب بشكل ما.. آه.. لقد تعب ولم ينل شيئا. إنه يريد حتى مجرد أن يصدر أوامر لا تطاع، يريد أن يتكلم لكنه أصبح بالنسبة لمظهر «حمودة» عورة يجب أن توارى. والذى يحز فى نفسه اليوم هو أفكار الليل، حينما يرى على هيئة كابوس حساب الملكين بعد أن أذيع بين كل الناس أن الحاج «ماضى» باع أملاكه لابنه «حمودة» وليس لـ «رضا» ولا لأمه فى الأرض مساحة شبر واحد، وأكد هذا المعنى للحاج «ماضى» «زيادة» الحلاق وكان يومها مستلا الموسى ليحلق له ذقنه، وأكمل قص القصة من أن بعض الناس يقسمون أنهم رأوا وثائق البيع بأعينهم، وأن «حمودة» دافع عنه لوجه الله. فإن «الظلم» أحد الأبواب السبعة التى فتحها الله لجهنم. غير أنه أوسع أبوابها! ثم استطرد وهو يحك ذقنه بالفرشاة:

– هكذا يقول الناس يا حاج «ماضى»، والله أعلم.. ويؤكد الحاج «ماضى» عكس ما يقول الحلاق، لكن ملامح طمأنينة وإعراض وإهمال تلازم وجه «منيرة» وابنها «حمودة».

ويتقلب «ماضى» على الفراش فى الليل، ويطن من حوله البعوض فــى ولولة جائعة وتفوح رائحة المحاصيل ورائحة الســماد فيذكر «بهية» وابنها، ويود لو أنه قادر على الهجرة إلى المدينة إن الحاج «محمــود» يحمل إليه أنباء ســيئة عن حياة ابنه لكــن المبارزة بلا ســيف عملية خرقاء، وهو نفســه يحس أنه كائــن تاريخى طالت عزلته عن الناس حتى نســى وجــوه الكثيرين منهم. ورجال جيله مــات معظمهم، وعندما كان يمــوت ند له يدخل عليه «حمودة» فى ملابــس العزاء ويخبره كأنه يزف إليه بشــرى.. والذين كبروا من الشــباب غابت ملامحهــم عن ذاكرته، كأنما لم يعــد هو فى حياة الناس أكثر من وسواس فى ليلة أنس.

و «حمــودة» قد بلغ الأربعين من عمره اليوم وهو يســتعد لزواج ترتيبــه الثالث فى حياتــه. كانت زوجته الأولى مــن اختيار أبيه فلــم تلبــث أن طلقت ولم تنجب وبقى «حمــودة بعدها فى غنى عن الحلال!».. أما الثانية فقد ماتت وهى تلد واختنق المولود!.. وبقى «حمودة» بعدها فى غنى عن الحلال!.. وهو اليوم بعد أن اتســعت أرضه وكادت القرى المجاورة تنسى ذكريات أبيه بعد أن وضع ابنه دهانا أجمل على الواجهة العائلية القديمة، فإنه اســتطاع أن يقدم لخطبة فتاة من أســرة ريفية عريقة.. يملــك أبوها حدائق موالح، وقتل أخوها منافســا له فى الانتخابات، وتزوجت أختها من قاطع طريق. وخالها شــيخ قبيلة يستطيع محاربة الحكومة، وفضلا على ذلك كله فقد قالوا إنها جميلة حديثة السن لم تتجاوز الثامنة عشرة

وأنها حين رأت عريسها بطريقة ما يوم زارهم فى بلدهم وأعجبها بعثت بخادمة زنجية ترصدته فى الطريق على بعد ودست فى يده منديل سيدتها المطرز المعطر! وشاعت هذه الأسطورة فى عزبة «ماضى» كأنها أغنية وبدت السعادة المحفوفة بالغرور على حركات «حمودة» والاحترام والخوف عند الريفيين ليسا معنيين مختلفين. ولم يعد «حمودة» منذ تاريخ هذه الخطبة يركب البغال بل اقتنى فرسا أبيض أكحل العينين كان صهيله يصل فى جوف الليل إلى حجرة الأب ذات السرير الأعجف والقوائم الصدئة.

وكان بعض الأتقياء والتقيات يتساءلون: لماذا يمد الله للظالم فى أسباب النعمة؟ فيرد عليهم بعض الأشقياء المحرومين بأن النعم قد تكون من عذاب الله. ثم يضحكون من منطقهم هم أنفسهم داعين الله أن يعذبهم فى الدنيا باللحم والفطير والموز.

وترتفع ضحكة من مكان ما خلف النخيل كأنها رد على الحوار، وتمضى الحياة بطريقة غير مبالية فيها دموع وجوع وأشياء أخرى.

وينقضى عام على هذا النحو.

يخرج فيه «بركات» بريئا من تهمة التهريب لكنه يعيش مدة غير قصيرة خائفا لا يغنيه الحلال القليل، وتقوم بينه وبين «عزوز» مشاحنات خفيفة يحجم كل منهما فيها عن السؤال أو إبداء الأسباب، ويحس فيها «عزوز» أن معلمه «بركات» عاجز عن طرده فتأخذ الكراهية شكل يشبه التيارات السفلى فى البحار.

لكن موقف «رضا» فى هذه الفترة كان موقف كل الذين يعيشــون علــى الكفاف، وكانت الحياة حوالى ســنة ١٩٣٧.. قليلة النفقات. والكسب القليل يكفل لصاحبه الحياة بشكل ما، واستطاع الشاب أن يستقل عن خاله وكان قادرا على حمل أعبائه بصعوبة ولو أن صاحب المطبعــة كان يحبه ويتمنى له أن يثب فــى حياته وثبة أكبر، رآه غريبا بين العمال الضاحكين المرحين شبه منكمش كمن يعانى ألما، فلما عرف حقيقــة حاله بعد أن أنس إليه قربه ودفع به إلى إحدى المدارس الليلية فى الحى كان صاحبها ابن عم له فتقدمت معلوماته، وأحس «رضا» بلذة جديدة كانت أشــبه بمسكن للآلام وعرف أن فى الدنيــا طرقا يمكن أن توصل إلى الرفاهية وأحســن طريقة فيها هى تلك التى ســلكها أخوه ذلك الذى انتهز فرصة انهيار أبيه وضعف جناح «بهية» فاتخذ من هذا وسيلة لمأساة عائلية.

وكان نجــم خاله فى الأفول، كان كلما لقيه انطبعت على وجهه الأصفر المستطيل ابتسامة غامضة تحمل معنى المرارة والعجز ويقول له إذا ما خلابه:

– هيــه.. كيــف حالك يا «رضــا»؟ اصبر.. اثبــت.. «ويقهقه: معلهــش.. واحــد منا لم ينفعه مــال أبيه.. وواحــد لم ينفعه مال زوجته.. «ويقهقه» ويسكت ثم يستطرد:

– لكــن يا «رضا» ربما كنت أنت مضطرا لاذنب لك فى مصيرك، أما أنا مسئول عن مصيرى..

ويطــرق مفكرا فى الليلة الأولى التى أحس فيها بانتصار حارس الملكة وســعادته حين منحته الشرف الكبير. وكان المعلم «خميس» وقتها يهذى من جراحه. ويقول بركات فى نفسه: ربما لو لم أفعل هذا ما وقع ذلك من «عزوز» وليس معنى ذلك أنها دقة بدقة.

* * *

هذه خطابات «حسن» لا تنقطع عن صديقه «رضا» وقد زاره قريبا بمناسبة مولد السيدة، وكان معه «عادل بن الحاج محمود»،ـ وحملوا إليه آخر أنباء العزبة، وأهمها أن والده قد باع أرضه كلها لأخيه، وأن الناس يؤكدون والأب ينفى، وأنه يبدو شاردا باستمرار.

وحدث فى إحدى الليالى التى باتها «حمودة» خارج العزبة لأمر يتعلق بملذاته أو خطبته أن نهض الحاج «ماضى» من الفراش ووقف فى الشــباك يتأمــل الدنيا، وكان بصيص مــن الصحة خادع يحبب إليه الحركة، ورأى القمر يلقى نوره على المزارع، والأشــجار تبدو واقفــة تتنفس فــى هدوء. أحس كأنه محتــاج إلى الحب ولم تخطر بباله «منيرة» ولا «بهية» بل اشــتهى أن يجوس خلال العزبة التى كأنما خطف كل شــبر من أرضها مــن أرض بعيدة وجمعها بطريقة لا تتصور». وتسلل نازلا. كان حافى القدمين، وهبط السلم فلم يقابله أحد، وكان نور حجرة زوجته خافتا فعرف أنها نائمة، واتجه إلى الحظيرة، كان يخاف البغل والخيل طبعا. كان هذا أقوى من قوته،

وذهب إلى حظيرة الحمير فاختار وركب وسار، وكان المارون القلائل فى العزبة يكفون عن الضحك أو الكلام عندما يتعرفون عليه، ودار حـول الأرض، ورأى مـن بعد ارتفاع المبانى الجديـدة التى أقامها «حمودة» لمناسبة زواجه ليعادل أصهاره حقيقة، وبعض طيور الليل تتزاحم على الأشجار فى قتال غريزى، وأسكره الهواء ونور القمر فظل سائرا، لكنه خاف أن ينتابه الصرع فيسقط وربما وقع فى الماء فعـاد من حيث أتى.. وكانت هذه الرحلـة آخر رحلاته فقد أقعده بعدها المرض.

ولكنـه فى نفـس الصيف وفى إحدى ليالى الجمـع حددت ليلة زفاف «حمودة» على عروسه الجديدة «زينب» ابنه الأشراف.

ونصب سـرداق كبير فى أحـد أطراف العزبـة وحضرته فرقة موسـيقية ومطربون.. وتحول المكان إلى مهرجـان هو فى الحقيقة نقطـة تحول فى التاريخ، إذ إنه بقدوم الصباح على «حمودة» يكون قـد احتل فـى نظر المجتمع الريفى قمة جديـدة بعد مصاهرة هذه الأسـرة، وجال فى نفسـه خاطر خافت الصـوت مالبث أن أعرض عنـه، هو: «لو أن هـذا الزفاف كان قد تم بعد مـوت أبيه».. لكن مالبث أن وجد الرد: إنه لا يفارق الفراش.. والأمر غير مختلف!. حى ميت..

وامتـلأ الريـف بالأنـوار، وبدا نـور القمر فى المـكان فضوليا شـاحبا، لا يمكن رؤيتـه إلا على بعد.. على حـدود البصر.. على

رمـال الصحراء، وبرقـت بالنور أطراف النخيل والشـجر وأبراج الحمـام.. ولم يعرف أحد أحدا. كان الوافـدون من جميع الأزياء، فلاحـون بحفائهم وعصيهـم أونعالهم الغليظة، وأفندية ومشـايخ وعرب وأعيان ورجال الإدارة.. والمهم هم هؤلاء. وتصايح الفلاحون حين رأوا «بوكس» الحكومة: «البيه المأمور».

وكان «حمودة» يشـعر أنه يجتاز خطـا تاريخيا، أما أبوه فكان فى القسـم الثانى مـن البناء حيث لا يرى إلا انعـكاس النور على الأرض مـن بعد فقد كان شـباكه خلفيا لا يـرى الجماهير وتكاثر حولـه البعوض يولول فى جوع وكان يحس بإعياء وثقل نفس، ولم يكن يشعر بفرح ولا حزن، كان فى حالة تعادل كالتى كانت شعرت بهـا «بهية» صباح الليلة التى لا تنسـى، حين كانت لا خائفة ولا مطمئنة. وخطر على باله ابنه الآخر، لقد عرف أنه يعيش كفاف، وود لو عمل من أجله شيئا، لكن نظرة واحدة من «حمودة» أصبحت تشل إرادته، وعرف أنه مسئول عن تربية هذه المخالب له، لو أنه قصصها أولا بأول لكان ابنه أنيسـا. جاءته هذه الخواطر فى ساعة حساب وصفاء وروحانية، وتمنى لو عادت هذه الترعة التى منحته هذه الأرض فتوقفت عن التدفق، لكن ذلك مستحيل، «لعن الله زوجة وزير الزراعة فقد كانت هى السبب».. هكذا قال فى نفسه. وتخيل أن الترعة قد نضبت نضوب شـرايين جسمه، وعاد التين يحد أرض

الصحـــراء، إذن للقى الله بقلب غير خائف.. ودمعت عيناه «إن هذه الأرض تستطيع أن تطعم خمسين ولدا فما باله يطمع؟!»..

وظل هكذا يفتش عن المســئول. وبين حــين وحين تأتيه فواصل موسيقية كأنها استراحة بين الفصول، ثم كف عن التفكير واستسلم لشــبه نعاس، وكان هواء الليل قد بدأ يخف، وعلى الشــجر شــبه نداوة وفى السماء صفاء يهدهد السعداء.

وكانــت «بهية» فى هــذه اللحظات تــذرف دموعها فى صمت وتســأل عن «رضا» فى كل مكان. إنــه لم يعد حتى وقت متأخر من الليل، وأخيرا قال لها خاله:

– نامى يا سيدتى.. نامى فربما كان فى سهرة سعيدة.

وكان يكتــم قلقه عنها، وطلع النهار ولم يعد «رضا».. فاســتبد القلق بالأخوين..

ولم يكونــا يســتطيعان أن يخمنــا أنه هناك، ظنــوه جريحا أو قتيــلا وهو فى واقع الأمــر كان حاضرا فرح أخيــه، دفعه إلى ذلك دافع لا يقــاوم، تألف من عدة نوازع منها الحنين والغضب، وحب الاســتطلاع، وتشــجيع الصديقين له «عادل وحسن» حين زاره فى القاهرة، وكانا يعلمان أن زفة «حمودة» ســتكون مثل هجوم يأجوج ومأجوج. وأنه لن يعرف بين الزحام.

وأخذ «رضا» بدلة من صديق له، وطربوشا ونظارة بذراع مذهبة وسبحة كهرمانية كانت تمســك فى ذلك الوقت للزينة لا للعبادة.

وجلس فى السرادق بين الناس، بين الأفندية والمشايخ ورجال الإدارة، وعده أهل العريس من أهل العروسة وعده أهل العروسة من أهل العريس، ولم يستطع أحد من الفلاحين أن يعرفه بعد أربعة أعوام وشباب وتغير ثياب، وتعشى..

وخرج وجاس خلال وطنه، مر بالمكان الذى أخرج فيه الشوكة من رجل «بدور» ثم عبر المبانى، وكانت دور الفلاحين تبدو حقيرة جدا، منزوية تحت الأضواء مثل شحاذ يلبس الأسمال فى المدينة فأحس «رضا» أن الظلام ستر، وتسلل بعيدا عن النور. كان يريد أن يرى أباه، حبا أوحب استطلاع. كان تواقا أن يرى نقطة البدء فى حياته، ذلك المسئول عن مزاحه يوم تزوج أمه «بهية».. مثل مسئولية الهاربين من اللقطاء. وكان غير راسم خطة، وكان لا يدرى ماذا سيقول لمن يقابله حين يسأل عنه، غير أنه كان مطمئنا إلى شىء واحد، إلى أن «حمودة» لن يلقاه لأنه إن لم يكن فى المبنى الجديد المنفصل حيث تجلس العروسة فإنه لن يخافه إذا لقيه وإن عرفه سيقول له: إننى آت لأراك فى فرحك. ولابد أن إحساسا ولو زائفا من الروابط سيجعل الأمر يمر فى سلام.

وتقدم أفندى فى زى مهيب، أسمر ممشوق طربوشه على حاجبه، وتحت أنفه شارب يدل على أن صاحبه مهذب. ورأى النخل وأبراج الحمام فى الناحية الشرقية الشمالية على مقربة من الدار القديمة التى يقيم فيها الوالد وتقدم.. وأحس أن قلبه يدق،

وسأل نفسه عن حال أمه فى هذه الليلة إنه لم يخبرها لأنه لو فعل لحدث أحد أمرين: إما أن تكون معه، وإما أن تمنعه.

ووجد الباب العمومى مفتوحا فدخل. كان هناك مصباح بزجاجة معلق فى الدهليز الطويل، ومن شباك مفتوح نحو الحقول كانت نسمة وانية تداعب المصباح فتهيب الزجاجة.. ورائحة الوطن، حيث نشأ ولعب وتعلم، وتعذب ونفى.. رائحة لبن ومحاصيل وسماد ونبات، ورائحة حب، ورائحة كره، منبت البذرة الأولى حيث يتمنى كل ريفى أن يدفن. لكن.. أحس بصوت «منيرة» زوجة أبيه يأتى من الداخل، فوقف فى مكانه وسأل نفسه: هل أنا فى أرض الأعداء؟ كيف ذلك؟ وتقدم.. وبطريقة غريزية وجد نفسه يستعد للقتال، وندم على أنه لم يحمل سلاحا حتى ولو سكينا، ثم ذكر ثانيا أنه داخل إلى مخدع أبيه. وهل الدخول على الآباء يحتاج إلى السلاح! كانت سكينة وسلام تملآن قلبه فى هذه اللحظة، ووجد نفسه على أول درجات السلم، وكان مظلما فيما عدا نورا ضئيلا يبدد سواد رأس السلم آتيا من الصالة العليا، وصعد أول درجة فسمع وقع خطوات، وجمد فى مكانه وتهيأ للقتال مرة أخرى، لكنه ما لبث أن أخذ أنفاسه فقد كان القادم هو الخادمة المسنة التى تقدم لأبيه الطعام عادة، وكان عمش عينيها قد زادته الأيام فتنحنح لتشعر بوجوده، وقال لها بصوت حاول أن يجعله أجش غليظا مهيبا:

– اسمعى يا بنت.. أنا طالع لعم الحاج «ماضى» فوق، هل معه

أحد؟ فقربت من وجهه مصباحا صغيرا وهتفت بفرح كفرح الأطفال:

– أهلا.. هل أنت الدكتور رمزى اللى زرته السنة الماضية؟

فتمتم بكلمات من الممكن أن تكون لا، ومن الممكن أن تكون نعم، وقادته الخادمة إلى فوق وتركته يدخل ونزلت.

ورأى الابن أباه..

كان شبحا هزيلا يبعث على الرثاء، وأحس «رضا» أنه غير قادر علـى الحقد حين رأى الحاج «ماضى» تحـت نور مصباح صغير فى حجرته نفسـها التى تطل على الحقـول، وبعض أكياس البطاطس والذرة، مرصوصة تحت السرير كأنها «رصد»، وجلس على كرسى مجاور، فنهض الحاج وجلس فى فراشه وقال مرحبا:

– أهلا أهلا بالدكتور.. هل أنت مدعو فى الفرح؟

– أهلا يا عمى.. نعم مدعو فى الفرح، لكنى لست الدكتور، لقد أخطأت الخادمة.ففارقت الفرحة وجه الطامع، وبدأ الاكتئاب على عظمتى خديه الناتئتين اللتين تلقيان ظلهما على الوجه، وقال له:

– أهلا.. لكن.. من حضرتك؟

– أنا ابن الحاج «مسعود» تاجر المواشى.. صاحبك القديم.

فهتف الحاج «ماضى» فى حنين وبقوة يسترد ذاكرة ضاعت منه:

– آه.. رحم الله والدك.. وأنت من فيهم؟

– أنـا.. أنا.. محمود.. لعلك لا تذكرنـى، لكن أعرفك من كلام والدى عنـك، وأنا.. موظف الآن فى محكمـة المركز.. كاتب.. ولما

عرفت الأمر أحببت أن أراك، لأننى فى الحقيقة أرى أبى.. أبى.

فهتف الرجل فى هستيريا:

– آه.. أبوك.. الله يرحمــه.. أين هو.. يالتيه كان موجودا.. الله يرحمه.

وبكى.. ومسـح دمعه بكمه، وبكى على نفسه، على الذكريات والحرية، على الدنيا الطليقة التى كان يجوب أركانها الأربعة.

وقال الضيف:

– لا تبــك يا أبى الحــاج.. لاتبك.. هذه حــال الدنيا، لكننا لا ننساك.

– مع الأسف.. أنا نسيتكم.. فيكم الخير.. عقبى لك تتزوج مثل ابنى «حمودة».

– هل أنت سعيد؟. ضرورى.

فتردد قبل أن يقول:

– أ.. لا أعلم.. أنا ســعيد وغير سعيد.. إنه صاهر ناسا طيبين.. لكن آ.. القوة مختلفة.

– أنا غير فاهم.

– إنه يقدر شــيئا واحــد، يقدر حالة الوفــاق، ولم يقدر حالة الاختلاف.. هل أنت فاهمنى؟

– نعم فهمت.. لن.. آ.. أليس لك ابن آخر.. هل..

فلم يتركه يكمل ورد مختنقا بالدموع:

– لى.. لى ابن آخر، لكنه ليس هنا.. فى مصر.

– فى الجامعة؟

فتأوه قبل أن يقول:

– كان جائــزا أن يكون فى الجامعة، لكن.. أنا الذى منعته. آ.. لكن.. هى إرادة الله.. إنه موظف الآن.. ليتنى كنت معه.

وأحــس «رضا» أنه سيكشــف لأن الدموع كانــت تقهره، وصار عاجزا عن الكلام، لكن الأب أعفاه من عواقب الموقف حين ظل يقول:

– لــو كان أبوك حيا يا محمود.. لو كان معك الليلة.. ورأى هذه الأرض..

وتحرك نحو الشباك ونظر إليها، وعاد ليكمل:

– لو رأى هذه العزبة.. لو عرف تاريخها.. إنها عذبتنى.

– ولماذا عذبتك يا عم الحاج؟

– لقد جعلونى أبيعهــا.. فى المنام.. لا أدرى كيف.. كل الناس يقولون لى: إنى بعتها.. وأنا لا أعلم بالخبر.. آه لو تعود إلى القوة، لو كنت فى الخمســين لجعلت كل شــىء على هــواى، لكن.. فات الأوان يا حضرة الباشكاتب.. فات الأوان يا ابنى.

ودخلت الخادمة بكوب من الشربات قدمته للضيف، وفى الوقت الــذى كان فيه مترددا فى إعلان اسمه، لقــد أحس أن والده قد فقد كل سلاح، وأنه انضم فوق ذلك إلى قائمة المغلوبين.. فملأ منه عينيه قبل أن يرحل، ومد يده ليسلم عليه لكنه فوجئ بأن الحاج «ماضى»

جذبه نحوه وقبله فى وجهه، وأحس أن قبلة الرجل كادت تتجمد وأنه على وشك أن يعيدها، وأن نفسه تخفق فى سرعة واضطراب فانخلع منه، وشد على يده مودعا:

– أراك بخير ياعم الحاج.. سلام عليكم.

– عد إلينا مرة أخرى، لقد ذكرتنى بـ «رضا».

– رضا؟

– الذى يعيش فى مصر. «وأخذ يتكلم كمن يولول» آه.. ذكرتنى به.. آه.. رحم الله والدك.. آخ.. ياليته كان موجودا لأشتكى إليه أشياء كثيرة..

– ياليته.. كان موجودا.. شفاك الله.

* * *

وبعد أن وجد نفسه خارج الدار أحس بظمأ إلى الدموع لا يقل شهوة ولا ضرورة عن ظمئه إلى الماء، فمشى بين النخيل يسمع نشيج نفسه.

وكان برج الحمام على مقربة منه ينبعث منه هديل غامض، فيه لوعة فراق أو حرارة لقاء.

ولما وصل إلى الطريق الرئيسى على الترعة كانت الأنوار كلها نحو الجنوب ودور الفلاحين أقرب إليه. وأغنية عاتية عذبة ذات

حماسة تتردد من فم مغنية مع نغمات «الأكرديون» حركت حناجر الفلاحين بالصباح وقلب «رضا» بالألم.

خيل إليه أنه فى حلم، فسار نحو الشمال حتى أمسى كل شىء بعيدا، وعلى يمينه الترعة التى منحت والده النعمة.. يتدفق ماؤها بسرعة.. أسود فى لون البن، وود لو ينهى حياته، أحس كأن هذه اللحظات وقت صالح للتوقف، فماذا لو رمى نفسه فى الماء؟ كان تعيسا غاية التعاسة.. ومرتاحا غاية الراحة.. إنها راحة القنوط. وشربت مشاعره هذا المزيج العجيب، فمنحه رغبة فى الموت.

ووقف على الترعة.. وفاحت من شجرة على الشط الثانى رائحة أزهار الفتنة التى عرفها منذ الطفولة أيام كان يجمع الصمغ والقرظ من هذه الأشجار.. أشجار السنط، وحبس دودها فى علب كأنها ديدان الحرير. وكان الماء مظلما فى المكان الذى وقف فيه وقد انعكس نور الفرح على المجرى بعد مائتى متر، وخيل إليه حقيقة أن الموت فرصة، وهل هناك أحلى من أن نموت على أرض الوطن؟

وأخذ يتخيل فى فوران عاطفى كيف أنهم سيعثرون على جثته فى الماء وأن أخاه سيقيم مثل هذه الليلة لتلقى العزاء لمجرد المظهر، ثم يتنفس بعدها الصعداء. وقد علم ما يكنه الآن قلب أبيه.. لكن هذا ليس مهما.. المهم هى تلك التى تنام فى القاهرة يمزق القلق قلبها الطيب.

«قلبها الطيب»؟ سأل نفسه هذا السؤال.. وتمنى أن يرى رجلا يدعى «سليمان»، ونزه أمه عن كل ريبة، لكن شيئا فى أعماقه ظل جامدا يرمز إلى اللوم، و «حمودة».. ما كان أبهاه فى الملابس الصوفية التى صنعت فى إنجلترا.. كان يختال مثل الطاووس بطربوش داكن، ووجه مستدير مكتنز كأنه نقش على قطعة نقود.. نعم.

– لكن هل له فى هذه الأرض شىء إلا الذكريات، وحتى «حسن وعادل» رآهما ولم يتكلم، وقد رأياه وهما بين الفلاحين الجالسين القرفصاء أو المتبرعين على الأرض، أما هو فقد كان ضمن الجالسين على الكراسى.

وسار نحو الشمال، وعطفت عليه نسمة تحمل رائحة الأرض المروية، فاستنشق ملء صدره، ومسح بقية دمعة، وارتاح وواصل السير مصمما على السفر، وكانت محطة السكة الحديد على مسيرة ساعة على التقريب والصحراء على يساره، والترعة على يمينه. ثم مالبث أن اندمج فى الليل والظلام، وكانت أصوات الطلقات النارية التى تشق السكون من بنادق المدعوين تتناهى إليه فى الوقت الذى كان فيه يعبر على المقابر.. «المقابر التى سيكون لكل سكان العزبة حظ فيها مائة فى المائة»، ولكنه عاد فسأل نفسه: هل من الضرورى أن يدفن هنا.

وذكــر أباه.. وذكر أمه.. ثم انعرج نحو الغرب ليســلك الطريق المؤدى إلى المحطة.

وفى الظــلام وهو يطل من نافذة القطار كان يرى.. من بعد أنوار العزبة، ويسمع طلقات البنادق.

* * *

obeikan.com

دورة الفلك

وبعد مرور سنتين أخريين وقعت حوادث أكثر عمومية. شعر المجتمع المصرى فيها بكل طبقاته كأن سورا تاريخيا عنيفا يحيط بالناس بنته يد عاتية أخذت تنقض بنفسها بناء هذا السور.

وكان هذا فى خريف عام ١٩٣٩م، حين أخذ الناس فى كل مكان يتكلمون عن قيام الحرب الثانية، ولم يكن أحد خائفا فى مصر، بل كانوا يذكرونها على أنها الزلزال البشرى الذى سيغير صورة الدنيا ولكن.. بالضرورة.. بعد شىء من التدمير.

وأحس «رضا» بالحزن، لأنه علم بوفاة والده مساء هذا اليوم، حين تقابل مع أحد زملائه فى المدرسة المسائية ووقفوا يثرثرون، فأخبره أن رجلا من بلدهم يبدو أنه قريبهم قد مات أمس الأول، وأحس «رضا» أن للأمر علاقة به، فذهب مع صديقه حيث وجد جريدة تاريخها من يومين، وجلس يقرأ نعى أبيه.. الحاج «ماضى» ولم يكن اسمه بين الأبناء، ولا الأقارب ولا الأصهار، فعلم أن هذه حرب أخرى أعلنها عليه أخوه، وخرج من بيت زميله ومشى يضرب فى الشوارع. لم يذهب إلى أمه ولم يخبرها، بل ظل ماشيا حتى جلس على قهوة صغيرة منزوية فى شارع منصور، حيث

أمامه خط سكة حديد حلوان، ولم يكن فى هذا المقهى إلا نفر قليل لا يزيدون على عشرة كلهم أفندية.. كانوا يتكلمون بصوت خافت وهم يلعبون الشطرنج، وشعر أن المكان صالح لامتصاص الحزن، وأخذ يفكر، ماذا يريد أخوه؟ لابد أنه حصل من والده على وثائق تثبت ملكية الأرض كلها له، وأطرق. ومر من أمامه قطار يتهادى على مقربة من المزلقان فحملق فى النوافذ، وكانت بعض أضواء البيوت المطلة على الشارع تلقى نورها على القضبان. وعاد يفكر. بماذا وكيف يحارب «حمودة»؟ وأبوه؟.. آه.. لقد ثوى فى المقبرة الصحراوية، والترعة التى تسقى الأرض على بعد نصف كيلو متر من قبره. ماذا قال فى نفسه وهو يموت؟ وفكر ثانيا.. لو استطاع أن يقاضيه فكيف يستولى على أرضه؟ إن له أصهارا وأتباعا.. أصهاره قطاع طريق. دفع مهرا كبيرا لبنتهم ليضمن فى المستقبل أن يأكل – بحمايتهم – حق أخيه، فضلا عن أمثال سليمان.. أبو داوود هذا الذى اكتراه لهتك عرض، وصفق بيديه بغير صوت، ونظر إلى القضبان المعدنية الممدودة على «الفلنكات» لتحمل ثقل القطارات، وفكر فى الحروب التى يجتازها الناس. وأنه هو الآن مثل دولة ضعيفة فرض عليها الحرب هل من الممكن أن يستسلم؟ وماذا يعمل فى قضية قوة القانون لا تنصرها؟. ماذا يعمل إذا قال القانون «لا» فى خلاف بينه وبين أخيه؟.. هل يحتكم للسلام كما فعل اليوم هتلر.. «يا ويلاه».. ثم ماذا يصنع وقد دخل اليوم على العشرين من

عمره؟. إنه الآن يشـغل إحدى الوظائف فى مطبعة «م» بعد أن نال قسطا من التعليم الثانوى الليلى. وأحس بعد أن قرأ «بحكم مهنته» أن قانون الغابات لا يناسب كل الميول، هو وإن ناسب رجلا مشهورا استطاع أن يدق على العالم المطمئن بابه ليوقظه فى رعب، فإن الواقع ليـس صوابا دائما. لكن.. ما قوله فى حمودة؟ ذلك الذى سـلبه كل شىء حتى صلته بأبيه؟

ووجد نفسـه يطلب «شيشة». إنه يريد شـيئا يحرك صدره من الداخل كحركة الشـهيق والزفير، ولذ لـه أن يتأمل النار الجاثمة على الحجر والفقاقيع المحبوسـة فى الزجاجـة. وأخذ ينفخ وإلى جانب منه نفس الناس الذين يلعبون الشطرنج فى هدوء:

– ملك؟

– انتهى.. دور جديد.

* * *

وعندما عـاد إلى البيت وجـد اثنين بانتظاره هنـاك، كانا هما «حسـن» و «عادل». وقابلهمـا باسما فى سـهوم فاحتضناه وبكيا. وعندما لاح لهما أنه يأخذ المأسـاة مأخذا أقل مما تصورا عاد إليهما شىء من هدوء النفس، وقدمت «بهية» لهما سمكا تفوح منه رائحة التوابـل، فعادت إلى «رضا» ذكـرى نصيحة خاله، حين كان يحذر أخته أن تعود إلى الريف.

وألقى الشـابان إلى صديقهما بالقصة، وعرف «رضا» أن كل شيء هنـاك مثلما توقـع، وأن الأب قد وقع عقد بيع بما يزيد على نصف الأرض لابنه «حمودة» وبذلك آلت إليه الأرض كلها.

وشـرد الشاب يفكر فيما عساه قد وقع، لقد رأى أباه منذ سنتين وكان كل شيء يدل على أنه لم يبع أرضه، فهل باعها بعد ذلك؟

ولكن حقيقـة الأمر التى وقفت عندها ظنـون الابن الصغير هو أن البيـع تم قبل ذلك فى الفترة التى كانـوا يتوددون الأب فيها.. «منـيرة» و «حمـودة». وفى إحدى نوبات الصـرع والأب غائب عن رشـده أخذا بصمات إبهامه، وشهد شـهود ظنوا أنهم يكتمون كل شـيء.. ولم يكن الحاج: «ماضى» يعرف الكتابة، وعندما أفاق شم رائحة الجاز التى مسحوا بها أصبعه ليزول الحبر ولم يفهم شيئا. وبعد ذلك جاءت الحلقة الأخرى من المؤامرة فطردت «بهية» وابنها.

وخـرج الشـبان الثلاثـة يجوبون شـوارع القاهرة على سـبيل الترفيه، وقال «حسن» باهتمام:

– سـأدخل الجندية بعد قليل.. ربمـا أكون قريب منك يا «رضا هنـا.. وربما تمتد إلينـا الحرب.. فأموت.. لكننـى على كل حال أشعر أن القدر سيجمعنى بـ «حمودة».

فسأله عادل:

– وماذا ستعمل فيه؟

أجاب على البداهة:

– سنكون فى حرب.

وكان كل شىء فى العزبة خلال هاتين السنتين يبدو غاية فى الضخامة، فقد شعر «حمودة» بقوته بعد المصاهرة الجديدة وكان يتحدث عن أصهاره كمن يباهى بمخزن سلاح، وخافه الفلاحون الذين يتفصدون عرقا فى حقوله ولا يأخذون ثمن هذا. وهاجر أحدهم ذات مرة إلى عزبة أخرى فقابله فى طريق السوق من كسر ذراعه بهراوة. وكيف يعيش فلاح بذراع مجبورة؟

وكان هذا الرجل عما لـ «حسن» أيضا.

أما حقيقة «حمودة» فقد كانت أبعد شىء عن كل هذه المظاهر.

وكان الخفير الجالس على مقربة من بيته يسمع عندما تقدم الليل شجارا بين الزوجين، وكثيرا ما كان صوت الزوجة يرتفع بالنشيج أو الشتائم، وبمرور الزمن استطاع الخفير أن يعرف صوتها الطرى الشاكى بين مائة صوت، ودفعه الفضول إلى صوتها أن يسمع دائما. وكانت ليلة من ليالى الصيف، فانبعث بعد نصف الليل شجار الزوجين، وأخذ الخفير يجمع أشتات الكلمات والحوادث من قديم وجديد حتى عرف أن المشكلات التى يدور حولها الصراع ثلاث: أهمها النفور الجنسى بينهما، فقد كان لها جسم حمامة، وحين يرى الفلاحون منظر بغلة يركبها حمودة فى النهار.. يضحكون.

وكانت زوجته تحس أن العلاقات بينهما مائدة يأكل عليها طرف واحد، ولذلك اشتد نفورها. وتمنى هو أن يكون النفور

موقوتا لأنه أحبها بكل قواه، وكان يحلو له أن يجردها من ثيابها ليراهـا بعينيه كأنهـا دمية، وكانت هى تـذوب خجلا وضجرا، ولرغبته الدفينة فى أن يكـون نفورها موقوتا كان يضعها كل ليلة موضع التجربة. فيقع الشـجار، ويرتفع صوتها الطرى الشاكى فى سكون الليل.

أمـا المشـكلة الثانية، فهى إحساسـها بعدم التكافـؤ، ليس فى المكانـة الاجتماعية، فهـذا يجىء فى المقام الأخـير.. لكنها كانت تشـعر أن كلا منهما قد خلق من طينة، والفرق شـديد بين شـفافية الزجاج وجفاف الفخار. وعلى الرغم من أنها ريفية لم تشهد المدينة إلا فـى القليـل، فقد كانت تحـس بأنه يخاطبها بلغـة أحط من أن تفهم.. كانت أحيانا ترى فى نظرات الأبقار رقة مأنوسة لا تتوفر فى نظراته.. رجلا حديديا شهوانيا. ضحكت وقلبها يبكى عندما حكى لها الخرافـة التى أذاعها الفلاحون فى عزبته مـن أنها بعثت إليه بمنديلها المعطر رمزا للرضا والترحيب، وكان فى قرارة نفسها أيضا معنـى يكاد يكون تعاليا فهى ما دامت لم تجد فيه تلك الصفات التى تحلم بها فى الرجل فقد طبقت عليه قانون الريف. فوضعت نفسـها فى مكان أرفع، أليس هو ابن تاجر المواشى، ما أعظم الفرق بين أبيه وأبيها صاحـب حدائق الفاكهة؟ وكان «حمـودة» يعبدها، ولم يكن يستطيع أن يعبر لها عن حبه إلا بالطعام والغريزة. أما ملابسها فقد بدأت تمقتها، لأنها أيقنت أن فى لبسها اهتماما به.

وتأتى المشكلة الثالثة: فقد مر عامان على زواجهما دون أن تحمل، وكان المرحوم والده يسأله فى بعض لحظات الصفاء عن هذا فلا يحظى بالجواب. وخاف قبل أن يموت ألا يرى لـ «حمودة ولدا.. لكنه مات ولم ير، ولم يكن هذا خوفا على «حمودة» بقدر ما هو خوف على بقائه هو وحفظ الميراث فى الذرية. وسمع الخفير ذات ليلة شجارا، ارتفع فيه صوت الزوج بطريقة هستيرية لا تقدر العواقب وهو يقول: أنا.. أولاد.. أنا.. عرفت نفسى من زمان.. أنت. وو . وو. ج.. م.

وتدخلت الكلمات، ثم انقطع الصخب وشمل السكون وارتفع عواء ذئب خلف أسوار التين على تخوم الصحراء وأشعل الخفير سيجارة، وعند الصباح أخبر زوجته «بدور» بما سمع، وكانت تتردد على بيت «حمودة» كتابعة تصطفيها الزوجة وتختصها بسرها وتدخل معها الحمام عندما تغتسل.

وجلست «بدور» ذات صباح تمشط للسيدة شعرها الأسود. السيدة مسندة رأسها إلى صدرها، وكانت أذنها قريبة من فم «بدور» فهمست فيها بكلمة مترددة:

– متى؟. متى يا سيدتى؟

– ماذا يا بدور؟

وأمالت رأسها ونظرت إلى فوق حتى كاد أنفها الرومانى المتميز فى وجهها الصغير يلمس خد «بدور» وسألتها وعيناها مغمضتين:

– ما قصدك يا بدور؟

– أدعو الله أن أحمل ابنك مع دستتين من الشمع إلى ساكن هذا الضريح ولى الله ويكون الشمع على حسابى.

وتنهدت، وأخذت تعمل المشط فى شعرها وهى مستسلمة كقطة بيضاء لكن شحنة من الأسى ملأت نفسها، وساد الصمت لم يملأه إلا صرير المشط ثم قالت «زينب»:

– أنا غير مصدقة أن «حمودة» قد ماتت زوجته الأولى فى حادث ولادة.

فأجابتها بالباطل:

– لم تكن حمى نفاس. إنها حمى عادية..

– آه.. قولى لى يا بدور.. أليس فى العزبة نساء من عودى؟

– فى كل الدنيا.. لماذا؟

– هل خلفت واحدة منهن؟

فضحكت بدور وهى تضفر لها شعرها:

– هل تريدين رؤيتها؟ غدا تأتى إليك وخلفها ستة من الصبيان.. من أوهمك بهذه الخرافة؟

فلم تجب، وزمت فمها الصغير فى إصرار فتاة من أسرة عريقة.

* * *

غير أن الحب والقلق تصارعا بلا هوادة فى قلب «حمودة».. كان واثقا أنه غير عقيم فقد دفنت إحدى العذارى جنينا منه تحت جذع

نخلــة، وكانت «بدور» تذكر ســوابقه وتعرف كل ما يعرفه أخوها «حسن»، وتربط بين ما حدث لـ «رضا» وأمه وما حدث لهما أيضا.. جمعتهم كلهــم صفة المتعدى عليهم، وباتفاق مع أخيها وزوجها.. عملت على تعكير صفو حياته، فجلبت من حيث لا يشــعر إحدى الغجريات لزوجته فتعلقت بالسحر والشعوذة ودخلت حالة نفسية مضطربة أشــبه بحالة الحرب، وعندما أفصحــت لها الزوجة بأن البقــاء معه لم يعد يهمها أقنعتها «بــدور» أنها تدافع عن أنوثتها وأن كلمة «العاقر» لا تتناسب مع جمالها.

واســتيقظ الزوج فى الصباح ذات يوم علــى أنين زوجته فألفاها شــاحبة صفراء.. وأخبرتــه بوجوم ودمــوع أن كل أملهم قد ضاع، فقد أســقطت جنينا ابن شهرين.. وكان كل شىء مجهزا فى الحمام بتدبــير «بــدور» والغجرية التى تجلب للنســاء فــى القرى كل ما يحتاجونه فى عالم الذرية.

ورأى «حمودة» ذلك الشــىء بعينيه، لكن حدث والشمس آخذة فــى النهــوض أن رأت «زينب» فى عينيه وعلــى ملامحه عكس ما كانــت تتوقع، لم يبد خوفــا من أجلها بل احتقــن وجهه الأحمر وولاها ظهره العريض ومشــى يتبختر. وانزوت تبكى وتفاقم الأمر بالنســبة إليها فى ليلة أخرى بعد أســبوع حين كان أحد الفلاحين يحكى هذه القصة على أنها حادثة عامة يعملها النســاء حين يردن خداع الأزواج.. وما أسهل الحصول على جنين أرنبة مذبوحة.

وقهقــه الفلاح.. المتوارى فى الــذرة وهو يحدث زميله وكأنه لا يقصد أن يسمعه «حمودة» ثم استطرد الفلاح.. نعم أرنبة..

ثم يوضع ذلك فى الدم.. هاء.. هاء.. وتسبك الحيلة على المغفلين يا مغفل..

رد عليه زميله: والأغرب من هذا يا شــيخ المغفلين.. أن الغجر يتعهدون بتوريد البضاعة، من كل نوع، يا ساتر..

ورجع «حمودة» وقد ملأه الشك، وتقوضت القنطرة التى تربطه بـ «زينب». فلــم يعد يتوددها.. وأهاج هــذا حنقها واحتقارها فاتسعت الهوة.. ووصلت شكواها إلى أمها.. وانتقلت من أمها إلى أبيها.. ومن أمها إلى زوجة خالها ومن زوجة خالها إلى خالها.. حتــى حدث فى إحدى الليالى أن خرجت من بيتها غاضبة فخلا البيت.

* * *

أما فى القاهرة فقد كانت الأمو بالنســبة لمن هناك تســير ســيرا لا بأس به..

عادت أيام «بركات» أكثر هناوة عندما اكتشــفت زوجته ســرقة بعض مصوغاتها فى صباح اليوم الذى انقطع فيه «عزوز» عن القهوة. ولما سألوا عنه فى مسكنه أخبرهم شريكه فى المسكن أنه أخذ متاعه وســافر إلى الســويس لأنه سيشــتغل هناك. وبدا على الزوجة غيظ

لا يوصف.. غيظ التى خدعت عن حليها وأمانتها، وعندما صرخت فى غضب أنه يجب أن تبلغ الشرطة هدأ «بركات» من ثورتها.. فقد اختفى الغريم وأفاقت الزوجة.

بدأت نقود الحرب تملأ الأيدى، وكثرت الهجرة من الريف إلى المدينة، والناس يتحدثون عن الأخطار والغنى المفاجئ فى وقت واحد، وبدأ ميزان القيم والنقود يتخلخل.. كل هذا و «رضا» فى وظيفته الصغيرة كأنه ينتظر شيئا مجهولا، ينتظره فى تجلد وتحمل فى عمل بالنهار وقراءة بالليل وعزلة وعيشة على الكفاف فى بيوت الأوقاف التى بدأت ترتفع حولها فى سرعة وتطاول بيوت التجار فى كل ركن وتسكنها كل الطبقات إلا الموظفين وإلا من تركوا وظائفهم وعملوا مع الجيش الإنجليزى. وكان «رضا» يقابلهم فى بعض الأحيان فيرى مظاهر النعمة تغطيهم مثل ريش الطاووس فينكمش فى الملابس المتواضعة.

وعندما يذهب إلى القهوة الصغيرة فى شارع منصور كان يستمع إلى أخبار الحرب من الراديو وأفواه الناس، ويتأمل القطارات الغاصة والمدينة التى سيهددها الظلام كما غطى الإسكندرية.

وكان «حسن» يزوره بين آونة وأخرى فى ملابس الجيش ويحكى له عن الحياة التى يحياها ويزوده بما يتناهى إليه من أخبار «حمودة».. وعلم بحوادث زوجته معه فأدرك أن الأيام المقبلة ستحمل أحداثا لا يستطيع التكهن بها..

وكان قد بلغ من العمر مرحلة يمكنه فيها الحكم على مقدراته، فألقى نظرة فاحصة على ما فات تحت تأثير ما تناهى إلى الناس عن قرب انتقال أخطار الحرب إلى منطقة الشرق، وبعد أن انهارت قوى كانوا ينظرون إليها نظرة تقليدية.

وتحت تأثير الحديث عن الغارات وقوافل الطائرات التى اكتسحت أوروبا – كان «رضا» ليلتئذ يحملق إلى السقف، فرأى عروق الخشب التى تحمله وقد طال بها العمر، وسأل نفسه: أليس من الجائز أن يموتوا تحت الأنقاض؟ وكانت أمه شديدة الخوف، تحلم بالعودة إلى الريف، من أجل هذا كله عمل «رضا» حسبة حياته وسط حياة الذين كتب لهم أن يكونوا أقرباء له فوجد خاله «بركات» ضحية نجحت إلى حد ما فى إنقاذ ضحية أخرى.. فى إنقاذه من الغرق ولو أن خاله لا يزال يمشى مبلول الملابس يرتعد من الخوف وتقلبات الجو، فقد أصيبت زوجته عقب فرار «عزوز» بانهيار عصبى، أما «بركات» فقد كان شديد الهدوء، منحته تعاسة زوجته استغراقا يشبه الغيبوبة اللذيذة، ولم يكن متأففا.. لأن «عزوز» اغتاله بالطريقة التى اغتال بها هو المعلم «خميس».

وحسد خاله على حاله. فقد أصبح من الذين لا يبالون، طائفة إيمانها بالقدر مثل كفرها به متساويان يمحو أحدهما الآخر.. يسب السماء ويستغفرها كل ربع ساعة.

أما أمه «بهية» فقد كانت شديدة الإحساس بالغربة، لم تتواءم مع المدينة منذ دخولها، وكم تمنت أن تكون متسولة فى العزبة ولا تكف عن طلب العودة إلى عمتها فى قرية أبيها، إنها تريد أن تقف على السطح فترى أبراج الحمام فى عزبة «ماضى» ولو أن الذكريات لم تغب عن قلبها..

كان حنينها لا يقاوم، وحين أفزعتها أخبار الحرب رأت الدار الريفية رمز السلام، وكان ضجيج الترام فى شارع الخليج يؤرقها فى الليل، فتحلم بنباح الكلاب فى القرية حيث يسود السكون ويرقد الظلام.

وأحس «رضا» أن أمه أصبحت دون مستوى الحوادث وأنه لا يجد من يبثه شكواه. وعندما كان يرى علامات البراءة على وجهها وزغب الإهمال على شفتها العليا كان يذكر الليلة التى لا تنسى. فيقفل الباب فى وجه الذكريات وينظر إلى حياته المتوقفة المتحركة كالزورق المربوط فى الميناء وقت العاصفة.

كان يحس فى هذه الأيام أنه جزء من العالم، وأن كل شىء ضيق عليه، وكما أن العالم يغير ثيابه بطريقة دموية ليرتدى ثوبا جديدا لا يعلم سعته ولونه إلا الله فإن «رضا» يحس نفس الإحساس.

إنه فى حاجة إلى أصدقاء.. وزملاؤه فى العمل كأنهم غرباء، يتكلمون بمزاج وبطريقة تشى بالرغبة – عن أغنياء الحرب وفتيات الليل والكسب الحرام الذى بدأ يغرى الناس، أما هو فكان يشعر

بالاشمئـــزاز من الحالتين، من الحالة التى هـــو فيها والحالة التى يتحدثون عنها.

وود لو أن الله منحه ثلاثة أشـــياء، صديقا مثل «حسن» فى وفائه وعلى درجة أكبر من التعليم، وإنســـانة يحبها وتحبه.. ثم.. عودة إلى أرض وطنه.

كان الوقت متأخرا من الليل حين ســـخر من نفسه ومن أفكاره، وأيقن أنها أشبه بالمطامع، ، وأخرجه من جوه المتأمل طرقات جاره النجـــار على باب حجرته فى الحوش وهـــو ينادى بصوت مخمور على زوجته النائمة المرهقة طول النهار..

وتصور «رضا» ماذا ســـيحدث فى الحجرة الأخرى عندما يدخل هذا الرجل على المرأة المسكينة.. ليطالبها بأن «تحمله بين ذراعيها» وعاد يناقش القضية..

لكـــن.. لماذا لم يدركه الرضا الـــذى أدرك قلب خاله؟ ولم يعرف الجواب فلم يستطع أن يعرف أن خاله قد نفس عن الظلم الذى لحقه بأن ظلم هو إنســـانا غيره، حين ســـطا على زوجة «خميس».. ولعل هذا هو نفس السبب الذى لم يحمل رجلا ريفى النشأة مثله على أن يبطش بـ «عزوز»..

وعلى ذكـــر المرأة جعل يتخيـــل أول فتاة ســـتكون فى حياته.. وتأوه.. وجلس فى فراشـــه كأنه نسى زاده وهو مسافر. كان قد بلغ من العمر الواحدة والعشـــرين، وفوجىء بشـــىء عده غريبا، فوجئ بأنه لم يعرف المرأة حتى الآن، فى أى صورة من الصور.

وتذكر القرويات وبنات الأحيـاء الوطنية ثم بنات المدارس ثم فتيات الليل يعترضن طريق الجيـوش التى بدأت تملأ العاصمة، وأن لكل رجل على الأرض امرأة على الأقل.. وإنه لم ينل شـيئا.. فأحس كأن شيئا يهوى فى أعماقه يسقط كشرفة منزل قديم كالذى يسـكنه، وأن رجلا مثل هتلر ربما لم يشـن الحـرب على الدنيا إلا لمثـل هذا الإحسـاس، ولا فرق بينهما أن الآخـر قادر على أن يغضـب بثلاثـة ملايين من الجنـود كما يغضب أخـوه «حمودة» بخمسـين رجلا من الفلاحين.. على حين أن «رضا» يغضب برجل واحد هو «رضا» نفسه..

وتنهـد.. ونظر إلى أمه الراقدة جنبه على السـرير.. بينه وبين الحائط تحت لحاف أحمر قان.. وسأل نفسه: «هل تحس أمه أيضا أن الحيـاة قد ضاقت عليها وأنها فى حاجة إلى توسـعتها بطريقة ما؟.» ذلك مؤكد..

ولذلك لم ينم حتى اتخذ قرارا، هو أن يتيح لأمه الفرصة أن تعود إلى الريـف فقد مضى خمس سـنوات على خروجهم، وعندما تكون فى قريتها.. أعنى قرية أبيها.. ستكون أمور لا يدريها ولا تدريها. وعند عمتها التى تسكن مع زوجها وحده فى الدار الريفية ستقضى بعض شهور، وبقية الحوادث علمها عند الله.

وكأنمـا ارتاح لهـذا القرار، فانطـوى بجانبها تحـت الغطاء المشترك، وهمس بصوت لم تسمعه أمه «آه يا أماه!!».

الرحيل

شعر الذين يسكنون بيت الأوقاف بعد حوادث التصدع الأخيرة بمشكلة الفراق ومشكلة السكن، فبعد أن اتسعت الهجرة إلى المدينة وتوقفت عمليات البناء فضلا عن البيوت التى تتساقط فإن هذا كله خلق أزمة فى المساكن.

وكانت هذه الحادثة سببا فى الرحيل مرة أخرى إلى حى جديد بعدما اهتدى السماسرة إلى حجرة كانت مهملة فى الأصل.. على سطح عمارة من ستة طوابق تطل على ميدان فم الخليج.

ولم تكن الحجرة مسكونة – من قبل – كانت زاوية السطح المسور تؤلف جدارين من جدرانها وحائط من «البغدادلى» كان قائما يحمل السقف، ويبدو أنها كانت حظيرة دواجن هجرتها الأرواح فعادت خرابا، وعندما سأل السمسار عن «مكان خال» خطرت لصاحب العمارة فكرة جديدة هى أن يضيف حائطا خشبيا رابعا للجدران القائمة ويفتح بابا ويرمم السقف، ثم يؤجر الحجرة.

وعلى الرغم من أن الصفقة تبدو مريحة بالنسبة لـ «رضا» فإنه بعد أن استأجر هذه الغرفة وصعد إليها أحس أن عالما جديدا – كعالم ما بعد الحرب – بدأ بابه ينفرج بالتدريج، ومع إحساسه

بالخطر لارتفاع المسكن ووحدته فى أيام لا تؤمن فيها الغارات، شعر بسعادة لا توصف.. فالشباك الشمالى يطل على شارع قصر العينى وعلى الميدان والحديقة العامة، ومستشفى الإنكلستوما وفرع النيل الذى يفصل الميدان عن النيل وحديقة شريف وتربط بينهما «المعدية». وكان من الممكن أن تمسك سقف الحجرة إذا وقفت على كرسى لكن الارتفاع العام الذى بنيت عليه لم يجعل ساكنها يشعر بأنها منخفضة.. نوع من الوهم! وأحس «رضا» وأمه بعد أن صعدا إلى فوق أنهما قادران على تحمل الجوع فى مثل هذا المكان.

وودعه خاله كأنه راحل عن المدينة، وقبله، وترقرق الدمع فى عينيه.

وبعد أن نظم كل شىء فى المسكن هو وأمه خرجا إلى السطح. وكان القمر فى هذه الأيام سيد الموقف بعد أن طليت مصابيح الشوارع وزجاج الشبابيك بالطلاء الأزرق، لذلك بدت رقعة السطح التى تلمع تحت القمر رائعة المنظر، ورأوا تلال المقطم ناحية الجنوب، وتناهى إليهم صخب المقاهى والسكارى فى «البوظة» القريبة، وفى الميدان يمر الترام مثل كائن تاريخى يمشى على بطنه، والحديقة ذكرته بأرض وطنه عندما فاحت منها مع نسمات نوفمبر شذى الأزهار ورائحة الخضرة، وترامت أشجارها حتى شاطىء النيل فى جلال ضخمه الليل.

وكانت العمـارة ذات جناحـين كأنهما توأمـان.. بينهما ممر لا يزيد عرضـه على ثلاثة أمتار وعلى مقربة من نهاية الممر سـلم لكل جناح، والنوافذ المطلة عليه تتلاقى فى تقارب.

وكانت هذه العمارة هى الحد الفاصل بين حى فم الخليج الوطنى بكل مقوماته وبين سـكان شـارع قصر العينى الذيـن يعتبرون من الطبقة الوسـطى. لذلك تـرى فى حديقة الميـدان مربيات وعربات أطفال وأمهات مثقفات وغلمانا شرداء وبين الطرفين أبناء الجزارين والحلاقين وتجار الجلود وخدم المستشفيات.

لذلـك فإن «رضا» شـعر بالنقلة ولم يشـعر بالغربة فمن ناحية الجنوب رأى الشعور المصبوغة والأسنان الذهبية لنساء فى النوافذ، وسمـع اللهجة الممطوطة المرصعة بالأيمان، ومن ناحية الشـمال أو بالأحرى. فى الجناح المقابل له كان يرى فى النوافذ نسـاء بلهجة أنيقة يغلب عليها الأمر والاختصار.

وعندمـا طرقت عليـه بابه بعد عدة ليال يد مسـتعجلة تعجب من يكـون الطارق. إن أحدا لم يعرفه هنا بعد. وحمل نفسـه وفتح فرأى شبحا عريضا فى بذلة عسكرية عرف فيه «حسن» فعانقه وهو لا يزال يلهث قليلا من طول السلم.

وأخـذ يتفحصان المكان معا من جديـد كأنهما دخلاه من توهما. وجلس «حسـن» وكان أول خبر زفه إلى صديقه أنه تعلم فى الجيش قيادة السيارات، واسـتطرد ضاحكا: ومنذ الحادثة التى قتل فيها أحد الكلاب الضالة وهو لا يزال تحت التمرين لم يقتل نفسا.

كانــت «بهية» فى ذلــك الوقت فى الملحق فــى الركن الآخر من الســطح حيث يقع بناء على شكل ما يسمى دورة مياه. كانت تغسل الثياب فى هذا الوقت وتعد طعام العشــاء، وعندما وصل حســن إلى هذه النقطة من حديثه عض على شفتيه، وهز رأسه كمن يؤمن على فكرة وهمس كمن يحلم: «لم أقتل نفسا يا «رضا».. صحيح».

ونظــر صديقه إلى وجهه وبهت، فقد كان حســن كمن يتكلم عن ثأر، يجول فى قلبه بغض وحب بطريقة تشبه جولان الماء فى بطن الأرض. كان يحب «رضا» ويكره أخاه. وعندما رأى بوادر الطمأنينة علــى وجه صديقه أحس أنه أهل لــكل نعمة، وكان يطلب له المزيد فــى صمته وإطراقــه، ويتمنى أن يكون هو صاحــب عزبة «ماضى» الكبيرة.

– ما لك يا حسن؟

– أفكر فى همومى..

وضحــك «رضا» فى الوقــت الذى كان «حســن» يتذكر كيف أنه عندمــا دخل الجيــش لم يعتبر مــن الأميين، وأن الــذى علمه هو صديقه، وتذكر كتابه الذى بلعه الماء يوم رمى به «حمودة». والنور الذى ينبعث من مسكنه فى العزبة والعزبة فى ظلام..

وخيــل إليه أن «رضا» لو كان شــريكه لاختفت نصف الآلام ولو كان مكانه لاختفت الآلام كلها.

كانوا يشـربون الشاى ويثرثرون ورشـفات «حسن» ترتفع على أفكار «رضا»، وكان السـهوم يتزايد على وجه «حسن» وهو يشرب مما حمل صديقه على أن يقول له عابثا».

– هيه.. هل تفكر فى قتل نفس أخرى يا حسن؟.

فهز رأسه وهو ينظر نظرة فهم «رضا» منها أنه يقصد غيرما فى ذهنه.. فأمسك عن الكلام وحول الحديث إلى ناحية أخرى، غير أن «حسـن» كان يعلم أشياء لم يشـأ أن يخبر بها صديقه، كان يعلم أن العلاقات بين «حمودة» وأصهاره قد ساءت إلى أبعد حد عندما التقت امرأة مجهولة من عزبة «ماضى» بامرأة مجهولة من بلد الزوجة من سوق المركز فحملت واحدة منهن إلى «حمودة» أنها سمعت من يقول على لسـان أصهـاره: إن «زينب» كانت لا تليق أبدا بابن سمسـار مواشـى. وسمع أهل «زينب» من المرأة الأخرى أن «حمودة» لن يعيد إلى بيته امرأة منتنة الفم والعرق، فضلا عن أنها عاقر..

وانفتح باب التقاضى فانسد باب الصلح وتبودلت الشتائم والمعارك عند المحكمة بين الأتباع.

ورشف «حسن» آخر جرعة من الشاى، وعاد يقول:

– آه.. يخيل إلى أننى سـأقتل نفسـا.. سـأقتل حيوانا على كل حال..

لكـن «رضا» الـذى فهم أنه ربمـا يلمح إلى «حمـودة» قال وهو يضحك:

– يظهر أنها «موضة».. القتلى فى كل مكان من الأرض ألم تسمع عن غارات الإسكندرية؟

– نعم، فقدت فيها صديقا.. كان معى فى الفرقة وسافر فى إجازة ليرى أهله فمات معهم تحت الأنقاض..

وسكت ثم سأل باهتمام:

– لكن لماذا اخترت هذا المكان العالى والغارات الحقيقية فى طريقها إلى القاهرة؟.

– أنا لا أخاف من الموت.

فرد كأنه ينهى الحديث.

– ولا أنا.. أيوه.. لقد علمتنا الحرب أن نفعل كل شىء بلا مبالاة وأن يتحالف الناس مع أعدائهم لكى يغلبوا أعدى أعدائهم كما فعل الإنجليز مع الروس.. «وضحك».

فنظر «رضا» إلى الظلام فى السماء. وكانت ذوائب الأشجار والنخيل تبدو من خلال الزجاج المضبب، وقال فى سهوم:

– حسن.. أنا أفهم قصدك.. أنت تقصد «حمودة» أنا.. لن أستطيع أن أقبل هذا.. لن أستطيع أن أتحالف مع أحد ضد أخى.. إننى أبحث عن أشياء كثيرة لحياتى وربما أجد بعضها. إننى لم أضيع شيئا وحقوقى التى ضاعت أشبه بحقوق المريض أو الطفل أخذوها وهو فى حالة لا يستطيع معها الدفاع.. وأنا.. أتخيل أننى يوم

أموت سأدفن حتما إلى جانب أبى فى المقبرة الصحراوية.. أبى الذى لم يحبنى قط. ربما كان لا يكرهنى.. لكنى سمعت أحد الذين يترددون على المطبعة يقول:

«ليس هناك فرق كبير بين الأب الذى يكره أبناءه والأب الذى لا يحبهم جدا».

عندنا فراش عجوز.. يده لا تكتب وعقله مستنير.. يكره الإنجليز والألمان معا، وعنده طريقة بسيطة لإجلاء أى أجنبى يمكن تطبيقها فى أى بلد وحتى على عزبة الحاج «ماضى» قالها لنا وهو يسخر من موظف يعرفه استقال ليشتغل مع الإنجليز ويغرق فى الكسب الحلال والحرام:

«لو أن كل مصرى خاصم الأجنبى غير المرغوب فيه فى بلده لا ننتهى الأمر. تصوروا مثلا أن كل الذين فى هذه المطبعة لا يقولون لى عليكم السلام عندما أقول لهم السلام عليكم.. فهل من الممكن أن أعيش فيها يوما؟».

وضحك حسن من حنجرة غليظة واستطرد «رضا» يقول:

– هناك خطة أخرى.. ستعرفها عما قريب.. سأخذ بها أرضى.. ويومها يا أبو على سأبنى لك دارا على الترعة ومنظرة لها أربعة شبابيك وسأنير دور الفلاحين من بيتى أنا.

فرد حسن مداعبا:

– أنت تتكلم بطريقة مرشح الانتخابات..

– نوع من الحنين.. سأفتح لك هذه النافذة لتشتم من الجنينة رائحة أرضنا.. قف.. هل ترى؟! انظر..

ثم وقفا يتنفسان هواء المساء فى عمق وصمت وأمل.

* * *

وكان الناس يتحدثون فى القاهرة عن غارات الإسكندرية حتى حدث ذات مساء أن رأى سكان القاهرة الغارة الحقيقية.

وفى الصمت الذى يمزق الأعصاب فى انتظار طلقة المدفع أو انفجار القنبلة أخذت «بهية» تعد أنفاسها. كانت إزاء تجربة لا يمكن احتمالها بالنسبة لمثلها، أما «رضا» فقد كان غارقا فى خيال مضحك كأنه كاريكاتير.

رأى فيه إيطاليا عريض الفك يحمل على ذراعه قيثارة ليتسول بها الشهرة فى التاريخ. وألمانيا مخمورا بشعر ناعم ومفرق أبيض شرب فى «حانة البيرة» عشرين زجاجة، ووقف يهذى بالمجد والعدوان.

وأضاءت الحجرة فجأة بوهج أحمر فرأى وجه أمه وهى تصرخ وتنزل من على السرير، وقد رفعت ذراعيها فوق رأسها كمن يتقى شيئا بين طلقات المدافع، كانت تنتاهى أصوات أطفال من الجناح المقابل وأوامر محمومة بإغلاق الشبابيك أو إطفاء الأنوار،

وعندما احتدمت الطلقات وقرقعت السماء انطلقت «بهية» إلى الخارج مذعورة، فلما رأت منظر السماء عادت إلى الداخل. خيل إليها أن حريقا شب فى الفضاء فتذكرت بيوت الفلاحين المحملة بالحطب.. ومن خلال شعورها المحموم طافت بخيالها صورة الحقول الخضراء، فأخذت أسنانها تصطك. فلم يجد «رضا» بدا من أن يهبط بها إلى أسفل، وشجعهم على ذلك أن السلم مسقوف. وكان الطريق طويلا كأنه بلا نهاية. وعند باب السلاملك الأيسر كان ناس يدخلون فدخلوا مع الناس.

وفى الصالة المحبوسة التى تشبه المخبأ أوى بعض سكان الأدوار العليا.. وفى سقف الصالة كان يهتز فى قلق مصباح عار طويل السلك يلقى نوره فى عدم مبالاة على الجالسين. وتعلقت الأعين كلها برهة بتلك المرأة الريفية الحافية القدمين، والتى يجلس إلى جوارها شاب لإشك أنه ابنها، وكان حافيا كذلك، ولم يكونوا يتكلمون فى شىء أكثر من التفرقة بين أصوات القنابل وأصوات المدافع. وفى الفترات التى يسود فيها السكون يتأمل بعضهم بعضا.

وكان «رضا» ساكن الملامح.. هادئ النفس. فأتاح له هذا أن يدرك تفاصيل ما يدور حوله، ونسى أمه التى بدأت تألف المأساة عندما رأت أنها ليست وحدها، وجعل يتأمل الفتاة، كانت تغدو وتروح وكأنها تطلب من الحاضرين أن يكلفوها بشىء وفى قميص ليلى واسع يهتز فى داخله جسم خصيب، لها لهجة ظامئة تثير النشوة، كأن فى صوتها بحة أو أثر جهد من كلام طويل.

وابتسمت للمرة الأولى فى وجه طفلة فى فترة الهدوء التى تسبق صفارات الأمان، ورأى «رضا» ابتسامتها كنجم وحيد فى السماء المطموسة. وأخذت الطفلة من أمها وانسربت بها نحو الداخل، ونادتها السيدة بعد قليل فعرف «رضا» أن اسمها «ثريا»..

وعرف «رضا» أن هذه الفتاة من أصحاب السلاملك، لأنها قامت بسرعة واهتمام ملأت كوبا من الماء من الداخل وقدمته إلى إحدى السيدات فشربت وسقت بنتها الباكية.

ولم يدر لماذا خفق قلبه لاسمها.. وجعل يتأمل كل شىء حوله، فرأى على أحد الجدران لوحة كتب عليها بخط كوفى: «الله نور السموات والأرض».

وبطريقة طبيعية ربط بين الاسم والآية.. ثم ما لبثت «ثريا» أن عادت بالطفلة وفى يدها بعض الحلوى والابتسامة الواسعة تكاد تصب النور على وجه الصغيرة، فأحس «رضا» أن بين الأسرتين صداقة، ثم جعل يخمن، أليس من الجائز أن تكون مخطوبة أو محبوبة.

وتنهد..

وسمع الحاضرون انفجارا بعيدا، فسرى فيهم القلق وقالت «بهية» بلهجة تنم عن الخوف «لماذا يحاربوننا ونحن لا نحارب؟ نحن لا نريد الحرب مع أحد».

فسرت بسمات خفيفة على بعض الأفواه مصحوبة بنظرات إشفاق فى الوقت الذى وضع «رضا» فيه يده على كتف أمه وكأنه يحميها، وفى اللحظة ذاتها كان يغمزها لتكف عن الكلام. وأقبلت عليها «ثريا» فى هذه اللحظة وكأنها لا ترى غيرها.. وقالت لها:

– لا تخافى يا ماما.. لا تخافى يا ماما.. إنهم يضربون الأهداف وهى بعيدة.

– وليس فيها سكان؟

وضحك بعض النسوة.. وبردت أطراف ابنها من الخجل، وردت «ثريا» قائلة:

– فيها.. لكنهم إنجليز.. تعالى معى إلى الداخل.

وأمسكتها برفق من يدها التى تمسك بها ابنها، فأصبحت يدها فى كفين ولم يكن بين كف «رضا» وكف «ثريا» إلا مسافة أصبع واحدة، وكانت نظراتها اللينة تخاطبه برجاء أن يدعها تدخل، فوافق مقدرا أن أقل مكسب هو أن تثرثر أمه بمخاوفها فى حرية بعيدا عن الناس إذا انفجرت قنابل.

– معها يا أمى..

ونهضت أمه.. ومن عينى «ثريا» السوداوين القلقتين لمعت نظرة امتنان ووضعت ذراعها على كتف الأم وسارتا إلى الداخل.

وأحس «رضا» بعد عشر دقائق أنه لم يعد غريبا فى هذا المسكن، وحملق فى الآية المكتوبة بالفضة على رقعة سوداء «الله

نور السموات والأرض» فأحس بسكينة مثل التى تغمرنا فى المعابد عندما ندخل للشكر على نعمة لم تكن منتظرة. أحس بفرح فى نضرة الزهر وحيوية الراقص تشمل كيانه وكأن نصفه هناك فى الداخل مع «ثريا».

وود بينه وبين نفسه ألا تنطلق صفارة الأمان، وأخذ بعض الجيران وقد اطمأنوا نوعا ينسحبون إلى مساكنهم، أما هو فقد حاول أن يعيش فى هذه اللحظات كأذن سمعت كلمة الحب للمرة الأولى.

وهلل الصغار عندما انطلقت صفارات الأمان، وهب «رضا» واقفا، لم يلبث أن رأى أمه قادمة من الممر المقابل و «ثريا» تحدثها بصوت خافت كأنها تعرفها من زمن.. كأنها تحكى ذكريات. ووقفت المرأتان أمامه والناس ينصرفون، فمد يده إلى الفتاة بطريقة خالية من الإرادة ليسلم، فأحس عندما أمسك يدها أنه ضغط قطعة من القطن، أو كفا ليس فيها عظام، أما أمه فقد قبلت رأسها على الطريقة الريفية فى الاعتراف بالجميل، وابتسامة ندية على فم الفتاة احتفظت عينه بصورتها كما تختزن حفنة من النور.

* * *

وكان الوقت لا يعد متأخرا عندما صعدا إلى فوق، عبرا السطح فى الظلام، فسمعا وسوسة المدينة. كان الناس يتحركون وفى الجو رائحة بارود، ومن خلال النوافذ تبدو أنوار بنفسجية.

ورقدت الأم فـى الحال، أحسـت أن كل مفاصلها تتوجع، وأن روحها منطفئة، بعد قليل كانت تحت سلطان نوم مفزع.

أما «رضا» فقد وقف فى النافذة ينظر إلى الدنيا التى غمرها الظلام ويراقب دقات قلبه، إنه قـد رأى هذه الفتاة من قبل، يذكر ذلك.. رآهـا مرة تعبر الميدان فى يدها حقيبة كتـب ومرة تقف عند بائع الجرائـد، ومرة فى الـترام، وتخيل الليلة أنها أحبته وشـاركته حياتـه، ثم قالـت له ذات مسـاء: «اذهب فاقتل حمـودة» لتأخذ أرضك.. بيدك أو يد غيرك، أو قالت: «اترك هذا كله وتعال نعيش بلا متاعب.. فإن «هتلر» و «موسـولينى» يريدان أن يكونا حزامين حـول الكرة الأرضيـة، مثل مدار الجدى ومدار السـرطان. خطوط وهمية.. فلا تكن مثلهما».

وعندئذ سـيقول لها: «سأفعل فإن وجه الحقيقة هو ما تريدينه نحوى وتنهد.. «يا إلهى.. ألم يشـعر حمودة» بمثل هذا الشـىء؟. إنه شىء عذب».

ونظر إلى قاع الشارع. كان بعيدا جدا، شريط الترام غائر فى أرضه يلمـع تحت نور مصباح المحطة، وعلى مقربة من دائرة النور ظهر رجلان يترنحان، ثم وقفا متساندين فى انتظار الترام. كان يبدو من ضحكاتهما أنها سكرانان، وسمع الصخب يأتى من «البوظة»، فذكر أنـات الجرحى تحـت الأنقاض فى الإسـكندرية. ولم يدر لم رأى الضحك والبكاء فى هـذه اللحظة وكأنهما صنوان، أو ضدان أصلهما

واحد. وارتفعت ضحكة مــن أحد الرجلين عند المحطة بعد أن بدأ الأول فى أغنية:

«بالتبر لم بعتكم بالتبن بعتونى».

«بى.. التبرى. ما. آ.. آ.. بع. بع. بع. هاهاها.»

وتابع «رضا» ضحكاته، وضحــكات أخرى تتناهى من «البوظة» كفرحة مختلسة فى عالم مهموم.

وقطع كل ذلك على حين غرة صفارات الإنذار مرة أخرى.

فســكت كل شــىء كأنه خنق، واختفــت الأنوار البنفســجية وانطلقت الأنوار الكاشفة تمسح السماء مسحا، وبدأ السكرانان مثل فأرين فى مصيدة يجريان تجاه المستشفى وأحدهما يهتف:

– يخرب بيتك يا «هتلر» «يخـ خرب.. بيتك.. يا.. يا.. هتلر».

ويرد الثانى كأنه بطانة:

– قبل بيتك يا موسولينى..

* * *

للحب بقية

ورأى «ثريا» فى الصباح التالى.

وأحس فى هذه المرة أنه رآها حقيقة وأن علاقة تقوم بينهما، وكأن ثوبها الصوفى الأرجوانى الذى تلبسه لم تلبسه إلا بعد رأيه..

كانت فى طريقها إلى ميدان الطيبى وهو فى طريقه إلى محطة الترام فى الشارع الرئيسى.

وفجأة غير اتجاهه ومشى خلفها، وخامره شعور أنها تحس بوجوده، فقد كانت تنقل خطواتها بتردد ملحوظ، وتحرك رأسها كأنها تغالب نفسها أن تنظر إلى الخلف، وحذاؤها الخالى من الكعب يلمس الأرض بتردد كأنها تمسحها قبل أن تلمسها، لكن خطوتها لا تخلو من الرشاقة.

ونظر إلى مزلقان السكة الحديد القريب، وتمنى أن يقفل، ولم يكد ينتهى من فكرته حتى سمع شيئا يسقط على الأرض، لقد انفتحت حقيبة الكتب التى تحملها، وانتثر كل ما فيها من كراسات، وأسرع إليها وقلبه يدق، ولم يبد فى عينيها أنها فوجئت به. وردت تحية الصباح وتركته يجمع الكراسات ويعيدها إلى الحقيبة. وفى هذه اللحظة أقفل المزلقان حتى تمر القطارات فوقها بين خليط الناس والعربات، والشمس لينة تغالب سحابا أبيض

قريبا من الأرض أحس «رضا» حلاوتها مع أول لمسات الحب، ورأى قوامها أصغر مما رآه ليلة البارحة وهو محشور فى ثوبها القصير وشعرها المجعد مرجل إلى الوراء مثل شعر غلام لم يبلغ حدود الرجولة.

ووقفا لحظة لا يتكلمان فى الوقت الذى كان فيه صفير القطارات يأتى من بعيد، لكن ملامحها المتوددة قالت كلمات لا تحصى.

ولما أرادت أن تخرجه من الصمت حركت شفتيها كأنها تقول شيئا. فسألها كمن فاته أن يسمع فاتسعت ابتسامتها وقالت له:

– أنا الذى أقول؟!. قل أنت.

– أنا متشكر على عنايتك بنا ليلة أمس..

فنظرت إلى بعيد.. ربما إلى السحاب أو أعلى المبانى كمن يتذكر شيئا نسيه، ثم قالت برقة:

– ولماذا لم تنزلوا ثانيا؟.

– آه.. هذا شىء يطول، وأردف بضحكة: شىء لا ينتهى طبعا، إلا بانتهاء الحرب..

ثم سادت فترة صمت قالت بعدها:

– هل يضايقك هذا؟

«ولعقت شفتها قبل أن تكمل».

– لو أن الوقاية من الغارات تتطلب الصعود إلى فوق فهل كان يضايقك أن ترانى عندكم؟!

واتسعت ابتسامتها فتكورت على خديها تفاحتان. وشعر أنه مثل السكارى الذين رآهم أمس، وإن اختلف نوع الخمر، وتسلط عليه الإحساس بالموقف حتى نسى ما قالته فسألها من جديد:

– نعم؟.. ماذا تقولين؟

فأعادت قولها. فدنا منها قليلا كأنه يريد أن يلمسها وهمس:

– تصعدين إلى فوق؟! معقول؟!

فأعرضت عن جوابه.. كأنها تذكرت أنها تسرعت وسألت بعد صمت:

– وكيف حال ماما؟

ومر القطار فغطى بضجيجه على رده، ثم انفتحت الأبواب وتدفق الناس والعربات فى فوضى وهما سائران جنبا لجنب، ومد يده فأخذ منها الحقيبة فسلمتها بعد ممانعة، فارتاح. وكان طبيعيا أن يسألها عن عملها وتسأله عن عمله بعد أن اختفت دلائل الاضطراب الأولى لأول لقاء بين اثنين فعرف أنها مدرسة بمدرسة البنات، وأنها تخرج فى هذا الميعاد ثلاثة أيام فى الأسبوع.

وعند باب المدرسة أعطاها الحقيبة وواصل سيره فى اتجاهه إلى شارع الخليج ليأخذ الترام إلى المطبعة. وعادت إليه ذكريات كثيرة، ورأى الأشياء الغالية فى حياته فى عدة خانات تتتابع فى وضوح لاستقبال شىء جديد يكاد يعطر القاهرة ويحل فى دنياه كل لغز غير مفهوم.. الحب؟

* * *

وعندما أقبل الليل كان جالسا إلى النافذة يترقب شيئا حبيبا فى الوقت الذى كانت أمه فيه تدعو الله أن يكفيها شره.

كان متلهفا إلى صفارة الإنذار لينزل. وامتد الليل ولم يحدث شىء فسهر يثرثر مع أمه. إنها لم تر خاله «بركات» منذ أسبوعين. إنها تريد أن تسافر إلى عمتها لتقيم هناك بضعة أيام. إنها تحس آلام المفاصل خصوصا فى الركبتين ودفء قاعات الريف خير دواء لأمراضها. هكذا تعتقد.

وأخذت تتوجع، ولسبب غير مفهوم انخرطت فى البكاء. وانطلقت عدة قذائف من المدافع المضادة دون أن تنطلق الصفارات، فمسحت الأم دمعها، وأبدت هلعها، وخرج «رضا» إلى السطوح يتفقد الموقف، فإذا دلائل الغارة على الأفق تنبثق من أرضه فى عدة نقط.

الأنوار الكشافة مطبوعة على السماء مثل سيوف اخترعها العلم فى القرن العشرين.

ولم يكن هناك شىء مفزع فمشى «رضا» متجها إلى السور حيث يقع تحت بصره الميدان والنيل والحدائق وانسحبت الكشافات من السماء فساد ظلام وصمت متوتر وأحس برودة الليل فبدأ يوحوح وجاءته ضحكات من قاع الشارع عرف منها أن سكارى البارحة فى طريقهم إلى البيوت، وارتفع الغناء فى اللحظة التى سمع فيها نداء أمه، فذهب إليها فإذا بها مستعدة للنزول. وفى أثناء هبوط السلم

عــادت المدافــع إلى العمل فارتفع صوت الأم بالدعــاء على «حمودة» كأنما هو الذى أشعل الحرب، وأحس «رضا» بارتجاف يد أمه وهما يهبطان فى الظلام كمن يغوص فى شىء لا أعماق له:

– ينشف ريقك ويسود طريقك يا «حمودة» يا ابن «منيرة».

وكادت تنكفــئ فأخذها بين ذراعيه، وسمعهــا فى هذه اللحظة تناجى الله كأنها لمسته.. أن يجعل مقبرتها فى عزبة «ماضى» وبكت:

كانا لا يزالان يهبطان الدرجات، وشــعر الشاب فى هذه الوهلة بشــعور جديد بأنه ما دامت الحياة عرضة لأن ينهيها شــىء تافه فلماذا لا يقدم على الموت فى سبيل شىء عزيز.. أليس من الجائز أن يموت بشظية وهو على السطح؟!

آه.. الموت برصاصة مســددة أشــرف من الموت بشــظية طائشــة جازاك الله يا «حمودة».

وعندما طرق باب الســلاملك كان وجــه «ثريا» أول وجه قابله، ورأى علامات الترحيب فى عينيها الفاترتين، ولاقت أمه بذراعها واحتضنتها مثل غلام صغير، ثم دخلت بها إلى المطبخ حيث الدفء والأمــان، وجلس «رضا» فى الصالة ينظر إلى المصباح العارى. والآية المكتوبــة وترقب عودة «ثريــا» من لحظة لأخــرى. وعقب غارات هذه الليلة تعرف على بقية الأســرة، على الأب الأسمر، الربعة، العريــض الكتفين، ذى الشــارب الطويل، وزبيبــة على الجبين، والذى يشــتغل ســائق قطارات، ويباهى فى الدنيا بأشياء ثلاثة..

يعددها فى بساطة وفخار: قوة نظره وحرارة قلبه، وجمال «ثريا» وحسن تربيتها، وبعدها ابنتان هما «علية وجميلة» يذهبان معا إلى المدرسة، أما الأم فقد كانت امرأة ودودا، قليلة الحيلة، كان والد «ثريا» يزحزحها بنظرته عن مكانها إذا ما شاء ذلك.

وسهر الأب يتكلم بقوة ويسيطر على زمام الحديث وكانت خفة روحه تنسى جفاوة طبعه وجهارة صوته، وكان يضحك من أعماق صدره ويرمى برأسه إلى الوراء وهو يقص عليهم تفاصيل معركة نشبت بينه وبين عدة جنود من الإنجليز فى محطة الخطاطبة يوم احتك به أحدهم وسخر من شاربه الطويل فيحمل عم «جابر» الإهانة على أنها مداعبة، لكن اثنين من زملائه انضما إليه وأخذ يزغزغانه وهما يضحكان، ثم تحسس أحدهم عنقه الغليظ وكتفيه وأبدى إعجابه، فى الوقت الذى تقدم فيه الثالث وأمسك شارب السائق محاولا أن يقص بعض شعرات على سبيل التذكار.

ووقفت القصة قليلا لأن عم «جابر» استغرق فى ضحك عميق، وكانت «ثريا تضحك وهى خجلة وتود لو والدها غير مجرى الحديث، غير أن «رضا» لمح عذوبة الروح المشتركة بين الفتاة والأب وإن اختلف الطبع باختلاف الظروف، وأشعل الأب سيجارة وأخذ يدخن ثم أكمل القصة.

شعر يومئذ أن الرجال كلهم أهينوا وأن شوارب المصريين جميعا أمانة فى عنقه، وأن المسألة مسألة شرف، وأقسم أنه تذكر فى هذه

اللحظة قصص كل الفتيات اللاتى خطفن بأيدى الإنجليز من شوارع المدن وأنه هو سيتحول بعد قليل إلى فتاة مخطوفة.

وقام الأسطى «جابر» واقفا ومثل بذراعيه كيف احتضن الإنجليزى يومئذ، أحس أن ضلوعه تطقطق، ثم أمسكه من يد ورجل وأخذ يضرب به زملاءه.

وراعه أن الضحك ارتفع من أفواه بعض الجنود وأسرع أحد الضباط إلى المعركة. فأفهمه الأسطى «جابر» ما حدث وقدم إليه المقص الذى أخذه من الجندى، ومن حسن الحظ أن الضابط كان بشارب طويل فبرطم فى وجه الجنود، والشرر يتطاير من عينيه.

وصمت «جابر» ثم قال لأول مرة بصوت خفيض:

– شعب يعجبك.. لكن.. عيبنا.. حكامنا.. تتعدل..

– كل آت قريب.

فعاد الرجل يقهقه ويقول. وقد انتفخت أوداجه:

– تصور.. لو كنت انهزمت فى المعركة.. أليست معركة شرف؟! عمرى ما تحملت الظلم يا أستاذ حتى من أعظم عظيم، هل تعرف نتيجة السكوت على الظلم؟

– قل لى..

– مثل نتيجة السكوت على البلهارسيا..

وكان يشير بيده إلى الشارع وهو يقول عباراته الأخيرة حيث يقع أمام النوافذ مستشفى البلهارسيا المشهورة..

* * *

أحس «رضا» أن هذه الأسرة تعيش حياة متسمة بالبساطة والقوة والإيمان وأن الصفاء الذى يسيطر على بيتهم خير دواء للقلب الكسير.

وأحس مرة أخرى أن عليه واجبا قد تخلف فى أدائه، وهو أن يقابل «حمودة». لماذا لا يقابله ويطلب منه حقه بصوت عال، ويسأله فى شجاعة: «بأى حق باع نصيبه من الأرض»؟!

وكانت هذه الأفكار تتوارد عليه وهو فى المقهى الصغير فى شارع منصور، والليل لم ينزل بعد، وأخبار هزائم الإنجليز تنتقل من فم إلى فم.

ومر قطار يحمل جنودا من مختلف الأجناس المحاربة من الذين ملأوا القاهرة، ورآهم «رضا» مطلين من بعض النوافذ فتذكر حكاية عم «جابر» وابتسم لعدة معان ذكرها فيه، صراحته وجرأة قلبه وقوله أن عيبنا حكامنا..

ومر القطار يزفزف، وانبعثت من الراديو أغنية لم يكد يستغرق فيها حتى رأى أمام عينيه شخصا عزيزا جدا وقف أمام باب المقهى وهو يبتسم وكان هو «حسن».

وجلسا يدخنان الشيشة، كان «حسن» فى عطلته الأسبوعية وفى بذلته العسكرية، والجهد والإعياء باديين على وجهه، وتحدث مع «رضا» عن قرب انتهاء خدمته وعودته إلى القرية وعن المتاعب التى قد يضمرها المستقبل.

– أى متاعب يا «حسن»؟

فقال وهو ينفخ الدخان:

– من الضرورى أن تعود إليك أرضك يا «رضا».

وحملق فى وجهه فرأى علامات مخفية تلمع فى عينيه.

– يجب أن آخذ أرضى حقيقة.. إننى مصمم على أن أسافر لأقابل «حمودة» بنفسى.

فأمسك «حسن» بكتفه كأنه يمنعه من السقوط وسأل فى قلق:

– تسافر؟

فهز رأسه موافقا.

– إنه لا يتردد فى قتلك..

فضحك مستهزئا:

– لقد قتلنى وانتهى الأمر..

– إذن فانتظر حتى أكون هناك.. بعد شهر واحد.. أضفه إلى المدة الماضية.. «ونهض».. سلام عليكم قد آن وقت العودة.

وما كاد ينصرف حتى أحس «رضا» بالضيق، أحس أنه فى غربة وتيه، وأن النهاية الصغرى لحياته لم تكتمل بعد وإن عاش فى نشوة قلبية ربما كانت الآن أوهاما.. إنه يعتقد أن «ثريا» تحبه وأنها ربما قبلت مشاركته مأساة حياته، ولكن.. أليس من الجائز أن يكون هذا كله وهما، وأن فيها بساطة أبيها واندفاعه الفطرى نحو المروءة، ومن الجائز ألا يدوم هذا الحال، فماذا إذن فى الحياة؟

ونظـر حولـه فإذا بالليـل يهبط والظـلام ينزل علـى العاصمة الكبـيرة، فقام إلى البيـت واختار أن يذهب ماشـيا كأنما يريد أن يستهلك طاقاته بحركة يديه ورجليه حتى وصل إلى هناك.

وعندمـا طرق باب الحجـرة وفتحت له أمـه رأى على وجهها علامات سرور لم يشهدها من قبل.

– ادخل.. عندنا ضيفة.

وهتف قلبه ولسانه:

– أهلا.. أهلا وسهلا.

فقامت «ثريا» لتسـلم عليه، كانت جالسة على الكرسى القريب من النافذة حيث تعود هو أن يجلس ويطل على الليل والميدان، وفى روب مـن القطيفة قديم عريق يحمل ذكريات ما قبل الحرب، أزرق بحرى فيـه نقوش بيضاء كأزهار الربيع، وعنـد نهاية الكم لمعت عدة غوايش من الذهب على معصمها الممتلئ وفى الوقت الذى كانت الأم فيه مشـغولة بالبحث عن شىء فى درج الصوان، كانت كلمات غامضة على الشـفتين، وكلمات ناطقة فى العينين فى ظل ابتسـامة صغيرة.. كل هذا على وجه «ثريا».

– أهلا.

قالها «رضا» وهو ينقل نظـرة من وجهها إلى المصباح، ويحتضن إحدى ركبتيـه بين ذراعيه وهو جالس على الكنبة، فردت «ثريا» بطمأنينة شديدة:

– أهلا بك.. إن السيدة الوالدة كريمة.. قبل المغرب بقليل صعدت إلى هنا لأن خللا حدث فى الراديو.

وسكتت.. فهز رأسه مستوضحا فى الوقت الذى خرجت أمه تحمل شيئا ملفوفا بين يديها واتجهت إلى المطبخ، وكان على الخارج من الحجرة أن يقفل الباب حذرا من جو ديسمبر والليل شديد البرودة. ولأول مرة فى حياته يرى بابا يقفل عليه ومعه امرأة، وبعد أن يذهب أثر اللفحة الباردة التى دخلت من السطح أحس أن دفء الحجرة غير مألوف، يغلب عليه دفء الروح أكثر، وخيل إليه فى طرفة عين أن الأرض كلها هنا.. عزبة «ماضى».. وملك «هتلر».. ومستعمرات بريطانيا..

وذكر «حسن» ووجهه الباسر من الغضب وهو منصرف من القهوة، وذكر «حمودة» وعداواته، وأصهار «حمودة» الذين يتربصون به، وكأن هاتين العينين الفاترتين قادرتان على أن تشفيا الأحقاد.

– أهلا وسهلا، وماذا حدث للراديو؟

– سلك الإيريال كان مقطوعا، فصعدت أنا والكهربائى لتركيب سلك جديد.

«ومثلت الحركة بأصابعها وذراعيها وهى تبتسم».

– آآه..

قالها وهو يهز رأســه كمن فهم قضية غريبة، ثم ولدت ابتسامة على شــفتيه فــى الوقت الذى كانت هى فيه تضحــك كأنها تتهمه بالسذاجة، وقد تكورت على كل خد تفاحة..

– وقابلتنى أمك ودخلت أسليها.. يالهامن سيدة طيبة.

وتنهد شــأن مــن يكتم الكثير، وســاد صمــت.. كان كل منهما يحملق فى الآخر ويود أن يقص عليه تاريخ حياته، ثم يســأله عن مستقبل نفسه حتى كأن كلا منهما يعلم الغيب بالنسبة للآخر فقط، أما مستقبله هو. فلا.

وعاد فتنهد فسألت «ثريا»:

– مالك؟

فتحير بماذا يجيب، ثم مالبث أن قال:

– أبدا.. لا شىء.. غير أننى خائف.

سألته بشوق وعجلة:

– من ماذا؟

– آ.. آ.. من.. الليل.

– من الليل؟ هل تخاف من الغارات؟

– أنا؟ أنا لا أخاف من الموت إلا إذا هدد أمى..

فأسبلت عينيها وهى مبتسمة، ثم قالت كمن يحلم:

– وأنا لا أخاف من الموت إلا إذا هدد من أحبه..

obeikan.com

– من؟

– بابا..

وكتمت ضحكتها، ثم عادت فسألت:

– لماذا لا تهاجر إلى الريف ما دام هذا يقلقها؟

– من الممكن أن تهاجر.. لكن.. آه.. لذلك قصة ربما عرفتها فى المستقبل.

– المستقبل؟ المستقبل؟ المستقبل؟ آه..

– ماله؟

– مالــه؟ حلو.. «بضحكة» بابا يتحــدث عنه بثقة كأنه صديقه المخلص، وماما لا تعرف عنه شــيئا لأنها سلمته لله.. وأنا.. لا مثل أبى ولا مثل أمى.

– آه.. تذكرت والدك.. كيف حاله يا «ثريا» كم هو رجل لطيف!

– إنه يبيــت الليلة فى الخارج بأحد قطارات الصعيد، وفى كل رحلة يحمل إلينا شيئا طريفا.. هدية أو حكاية.

– ليت أبى كان مثله!

فردت مجاملة:

– إنه بلا شك أحسن منه.

فاحمر وجهه وأحس بحرارة تملأ جســمه حتى شحمة أذنيه، وأحس أن والده لا يســاوى فى الميزان أمام عم «جابر» شــيئا يذكر، هذا الذى خلق من البنات أرواحا قادرة.

– لو تعرفين كيف أحبه!

– إلى هذا الحد يا «رضا»؟

– إلى حد أننى تمنيت أن يكون أبى.

فقالت بلهجة حاكت بها إحدى الممثلات المعروفات كأنما لتنسب الحديث إلى غيرها:

– ومعنى ذلك أن أكون أختك!

فرد وهو يبحث عن ريقه:

– نعم.. نعم يا «ثريا».

– تشرفنا..

قالتها بنبرة مسحورة فى الوقت الذى ارتفع فيه صوت آخر يقول نفس الكلمة بلهجة ريفية حرة، بعد أن دفعت الباب برجلها.

وكانت الأم تحمل بين يديها صينية عليها أكواب من الشاى وثلاث قطع من البسيسة صنعتها هى، وأخذوا يأكلون ويتكلمون عن الحرب، وأخذ «رضا» يتكلم بمرارة عن الذين يسلبون الناس أوطانهم، وكانت معالم وطنه الصغير تتخايل أمامه كأنها خريطة على الجدار..

ولم يطل بهم الحديث حتى انطلقت الصفارات وانبعث صوت من أعماق الشارع ينادى: «اطفى النور.. اطفى النور».

فخرج الثلاثة وأوصدوا الباب.. وعبروا السطح. وكان «رضا» فى الوسط وأمه إلى يمينه و «ثريا» إلى شماله، والقلوب تخفق وهم

يعــبرون الأمتار العشــرة المؤدية إلى الســلم، قلب الشــاب والفتاة يخفقان من الحب، وقلب الأم يخفق من الخوف..

وهبط الثلاثة..

وكف «رضا» بكف «ثريا» كخائف أن تضيع، وكفها مســترخية فى الاستسلام، وباليد الأخرى أمسك بذراع أمه.

والرؤى والمحسوسات مختلفة فى إدراكهم كأنهم يحلمون.

* * *

obeikan.com

الرحلة

كان اليوم يوم عطلة.. شتويا دافئا بعد أسبوع من الأمطار والشمس تفرش السطح و «رضا» فى حجرته يقرأ جريدة الصباح ويفكر فيما عسى أن يلقاه «حسن» فى القرية بعد عودته إلى الريف.

لقد ودعه ليلة البارحة وسهرا فى السينما، وتعانقا عند محطة الترام وبكيا.. وكان كل منهما يسأل الآخر بدون كلام: «ترى أين سنلتقى؟».

وتذكر «بدور» ووجهها الحلو وزوجها الحارس لـ «حمودة» و «حمودة» وماله الذى يتزايد، إنه يكسب من توريد البطاطس للإنجليز، وقد بنى بيتا جديدا بعيدا عن دور الفلاحين وحول القديم إلى مخازن، والجديد على الشط الآخر من الترعة فى انعزال وأبهة.

.. والدنيا تغيرت بالنسبة للآخرين..

وكان عمال المطابع وموظفوها يلاقون فى هذه الآونة كسادا وضيق حال لارتفاع أسعار الورق وانقطاعه من الخارج.

ومستقبل «رضا» فى عمله معلق فى خيط، لكنه لم يكن فزعا ولم يستطع تعليل ذلك، لماذا لم يعد خائفا من شىء؟

وعلى الرغم من ذلك تبين الفرق الفادح بين بقية الناس والأشياء، بين آباء من حقهم أن يعبدوا مثل عم «جابر» وآباء يجب أن يقفوا متهمين. وتأوه..

وذكر أمه، هذه التى لم تنل سوى التشريد، وأخوها الذى يحمل قلب الشرفاء ويحيا حياة مخالفة..

وذكر شخصا جديدا هو الأستاذ البتانونى المحامى الذائع الصيت فى الريف فى منطقتهم.حدثه عنه «حسن» فى آخر لقاء وقال: إنه من الممكن أن يعرض عليه قضيته مثل كل القضايا المعقدة التى يعرضها الناس فى الإقليم.

وأخذ «رضا» يتخيل: أليس من الجائز أن يحل هذا الرجل قضيته المطموسة؟

إن الحق الشرعى ليس فى حاجة إلى وثيقة، وإذا كان الأستاذ البتانونى سيتوصل إلى حل فإنه سيكون عن طريق الصلح. نعم، والذى يسنده فى ذلك ليس أنه حجة فى القانون، بل سنده الحقيقى أرضه.. إنه محام فى الريف يحمل نفس السلاح الذى يقدسه الريفى.

وضحك «رضا» من أنفه ساخرا: «والأرض أيضا» لأن الأستاذ البتانونى قد استطاع أن يقتنى أكثر من ثلثمائة فدان اشتراها حين اشتدت الأزمة العالمية، ثم أخذ دخله يتزايد.

وأحس «رضا» بصداع فرغب فى كوب من الشاى.. لكنه ما لبث أن تذكر أن بيتهم خال من السكر، وتمنى أن يجد فى البيت «شيشة»،

ما أجمل أن ينفث الدخان وينظر إلى الفقاقيع المحبوسة! وتذكر القهوة فى شارع منصور فهم بأن يقوم لينزل، لكنه ما لبث أن سمع وقع أقدام على بلاط السطوح.

وطرق الباب ففتح ودخلت «ثريا».

كان فى عينها فرحة لم يعرف سرها. ومعها شىء ملفوف. وضعته فى صمت على المنضدة، وسألت عن أمه ثم لم تنتظر الجواب فأخذت تتحدث عن أبيها وهى واقفة، كانت سعيدة كأنه قد عاد من الحج.. وأخبرته أنه عائد من الصعيد ومعه التموين ما داموا لا يجدون فى القاهرة سكرا ولا شايا ولا زيتا ولا جازا، وأن أمها رمت بالسمك حيا فى البحر ثانيا عند المعدية.. فهتف السمك لرئيس الوزراء.

وضحكت فى طفولة.. لم تبد عليها من قبل. وأخبرته أنها سمعت هذه النكتة من تلميذة فى المدرسة، وأكدت لها التلميذة الصغيرة أن الحكاية حقيقية، لأن السمك الذى عاد للبحر منتصرا كان من دكان أبيها..

وضحك ورجاها أن تجلس فجلست، ونظر إلى الورقة الملفوفة فوجدها قمعا من السكر يحمل ذكريات الريف، واختفى بعد لحظات جو الطفولة المرح الذى بدأ عليها، وكساها جد فطرى صانته من الجفاوة عذوبة روحها.

ولم يكن هناك حس ولا صوت، وحتى ضجيج الشارع كان يصل إليهما مخنوقا، وأحسا أنهما التقيا وجها لوجه، وأن شيئا جديدا على وشك أن يقال، وشعرت الفتاة باضطراب فسألت:

– أين أمك؟

فصمت ولم يرد، وتخايلت على فمه ابتسامة داعية، ومن عينيه الصريحتين أطلت روحه الحيرى، وتنهد ونظر إليها.

تلفتت «ثريا» فى المكان وسألت باهتمام ولكن بغير خوف. وخيل إلى «رضا» أن شجاعة أبيها قد رافقتها. سألت:

– أين أمك؟

فأشار بيده إلى قلبه، فابتسمت وهزت رأسها:

– أعلم ذلك، كما أعلم أن هناك أزمة مساكن فى هذه الأيام.

– لا.. إنها لا تسكنه وحدها، إنها تحرس الباب لشخص آخر يسكنه.. «ونظر إليها».

ففتحت عينيها واستنار وجهها بالسرور:

– إلى هذه الدرجة؟

– ضرورى، إن حياتى خالية من النور.

«وصمت واستطرد فى ابتسام» ولا فانوس واحد حتى مدهون بالأزرق.

– هل فى حياتك حرب؟

– حياتى كلها حرب.. الحق معى، والسلاح مع خصمى. من الذى سينتصر يا «ثريا»؟

– السلاح بلا حق أقوى من الحق غير المسلح.. هه لكن.. ما أصل الحكاية؟

obeikan.com

– نعم يجب أن تعرفيها.

* * *

ثم فرغ من القصة..

غير أن النواحى المؤسفة التى تتعلق بأمه لم تجر على لسانه، ودمعت عيناها الناعستان، وعضت أسنانها وقد انفرجت شفتاها عن شبه ابتسامة أتبعتها بقولها:

– نحن مستعدون أن نصنع من أجلك شيئا.. أنا وأبى.. أنت لا تدرى كيف يحبك، أنا وأبى.. أو أنا وحدى.

فهمس مستغربا:

– أنت وحدك؟

– نعم.. هل ترى هناك فرقا بينى وبين أبى؟

– فى أى شىء؟

– فى كل شىء نحوك.. «وتأوهت» لكن.. لماذا تعيش مظلوما هكذا؟ اذهب وقابل هذا المحامى، افعل أى شىء من أجل نفسك.. هل تريد شيئا من النقود؟

ولما لم يرد وضعت يدها على كتفه كأنها توقظه، وكان جالسا على مقربة منها مطرقا نحو الأرض، وأمسك كفها ورفعها إلى فمه ثم مرغ عليها خده، أحس أنه طفل فى ظل أم، لعل «ثريا» فى هذه اللحظة أحست بإحساس مقارب وهمست تسأل:

– أين أمك؟

– عند خالى.

نطق بهذه الكلمة وهو يرتعش، وأمسك كتفيها، كل كتف بيد وجذبها نحوه، وارتخت عيناها الفاترتان فأغمضتا تماما، وأحس حرارة أنفاسها وبرد ريقها فى وقت واحد. وفى تلك الوهلة التى تخرج عن مقياس الزمن أحس كأنه دخل أرضه وزرع وحصد، وأحب وتزوج.

ثم تبدد كل هذا بتباعد الشفاه وعودة الرؤى إلى العينين وانتفضت «ثريا» واقفة وهى تسوى شعرها وتقول بصوت خافت: «يجب أن أنزل.. آه.. ليتك شجاع فى الحرب.. مثل شجاعتك فى الحـ ..».

وضحكت ولم تكمل وخرجت ولم تلتفت..

* * *

وبات «رضا» يحس بأن حقه فى الحياة صار أغلى، وبات يحلم بالعودة ومعه إنسانة حبيبة، وكل ساعة تمر كانت تخدم هذه المشاعر.

ومرت به لحظات أخرى كانت مشحونة ببطولة مثل بطولة الأطفال تخيل فيها أنه قادر على إتيان الخوارق حتى على إغناء هذا الشحاذ الجالس تحت الشمس بأسمال وعكاز ويتكفف مرضى البلهارسيا الداخلين والخارجين بدعاء مرتل.

وكان من المحال أن يخبر أمه بشــىء لأنه لو فعل لصرخت فى وجهه. لقد مرت عشــر سنوات على التقريب على حادث خروجهم وها هو ذا قد بلغ الثانية والعشرين من العمر ويريد أن يطالب بحقه المسلوب.

ومهد لأمه طريق الحديث عن السفر فمالبثت أن طلبت ذلك منه فاتفقا على أن يســافرا معا حيــث يتركها عند عمتها لتقضى بضعة أسابيع ويعود هو لعمله.

ولم تنــم أمــه من الفرحة، باتت تمنى نفســها بــأن تقف على الســطوح فى قرية أبيها وتنظر نحو الجنــوب الغربى فترى أبراج الحمام، وتشم رائحة أبيها فى الدار التى باعها «بركات» يوم أقسم ألا تطــأ قدمه أرض قريتهم، وتحملق فى «سماعة» الباب الحديدية التى عبثت بها وهى طفلة تلعب.

هكذا كانت أفكارها..

أما «رضا» فقد كان فى غاية من الاضطراب، ولم يكن أحد يعلم سر ما ســيقدم عليه سوى «ثريا»، وحتى «حسن» لم يرسل إليه.. خاف أن يصيبه مكروه بســببه، وفى عقيدة «رضا» أن «حسن» ذخيرة له فى العزبة، وهو قلب مخلــص.. وإن كان اليوم وحيدا فربما أعدى بإخلاصه آخرين.

وقبل سفره بيوم كان بانتظار «ثريا» على مقربة من المدرسة وفى المساء أعلنت لأمها أنها ستغيب غدا حتى نهاية اليوم لأنها ستكون مع التلميذات فى رحلة إلى سقارة.

* * *

ولم تذهب إلى المدرسة إلا لتعتذر ثم خرجت، وفى ميدان الجيزة تقابل الاثنان. وكان «رضا» فى عطلة يوم الأحد، وكانت «ثريا» تحمل حقيبة الرحلات، وقد ملأتها أمها بالطعام ولم تكن «ثريا» تحس كثيرا من الخوف، كأن تفوقها الروحى عليه جعلها تشعر أنها بمأمن، أما «رضا» فلم يكن لديه فكرة معينة عن شىء.. ووقف حائرا وهى تنتظر فى هدوء وابتسام قراره الأخير.

وعلى مقربة منهما كان موقف السيارات العمومية التى تتجه إلى ريف الجيزة وبين فترة وفترة ينبعث صوت غلام أو رجل يعلن قرب قيام سيارة إلى بلد ما..

وأخيرا قالت «ثريا»: عندى فكرة.. تعال نسافر إلى بلدك.

– ماذا قلت يا «ثريا»؟

فأثار فيها طبعها المرح الميال أحيانا إلى الشغب، ولذ لها أن تسترسل فقالت كأنها جادة:

– وماذا يضر؟ هل أنت خائف؟ أنا معك.. ماذا تخاف؟ انظر..

فإذا بقافلة من جنود المستعمرات تخترق الميدان، من نيوزيلاند وأستراليا والهند، جاءوا ليقاتلوا «رومل» على رمال الصحراء، وكان فيهم رجال يبدو على وجههم المرض ومتطوعون يبدو عليهم السن، وحملق «رضا» فى العساكر وانخرطت «ثريا» تضحك ثم سكتت وهمست وكأنها ترقيه:

– بلدك.. وخائف؟.. خسارة..

وقبل أن يتكلم قالت شيئا آخر:

– تعال نقابل الأستاذ البتانونى معا.. هل عندك مانع؟

وغطى على اقتراحها غير الجاد صوت صبى إحدى العربات يهتف:

– البدرشين.. يا مسافر.. البدرشين.

وقبل أن تتحرك السيارة كانت قد أمسكته من أطراف أصابعه، أربع أصابع كانوا فى كفها، وجرته إلى السيارة فسار مذهولا، وقبل أن يصعد سألها فى همس:

– إلى أين يا «ثريا»؟

– إلى أى مكان.. نحن نبحث عن مكان تجلس فيه ولا يهم أن يكون ثابتا أو متحركا.. «واستطردت ضاحكة» تعال يا بنى.. تقدم. فالفرق ليس كبيرا بين الكرسى الثابت فى القاهرة والكرسى المتحرك فى الأتوبيس.. وجلسا متجاورين. ومالبثت العربة أن تحركت وعلا الصخب فى كل أنحائها وأصبح أزيز محركها يصم

الآذان، ويبعث الخدر فى الأرجل، وكان على الركاب أن يصخبوا لأن درجة الصوت العادية من المحال أن تصل إلى أذن.

وبدأ الحبيبان يتناجيان، وبدت «ثريا» فى غاية من المرح، تعلق على كل كلمة تسمعها، وعلى كل منظر فى الطريق الزراعى، وأحس «رضا» أن الفكرة موفقة عندما كانت مطبات الطريق وملفاته تتيح لهما أن يتلاصقا وأن يتماسكا أيضا، ولم يكن مستطاعا أن يحس طعم الدفء الذى يفيض به جسمها مالم تقترح عليه هذا السفر. وعندما بدت خضرة الحقول وانبساطها أحس الحنين، وتخيل فى وهلة أنه يشق طريقه نحو الشمال وأن هذه الترعة هى التى تقع عليها عزبة «ماضى» وأفاق من أفكاره على أنفاس «ثريا» تلامس أذنه لأنها قربت فمها منه وقالت له:

– فى ماذا تفكر؟.. لا تفكر وأنا جنبك إلا فى شىء واحد..

وضيقت عينيها الفاترتين قائلة بهما:

– أنا..

فابتسم..

– إننى أتمنى أن تسير بنا السيارة إلى ما لا نهاية.. آه.. لك حق يا «ثريا» أحيانا يحلو للإنسان أن يتوه حتى عن نفسه.. والدنيا كلها..

فقالت بخفة:

– وأنا مالى.. هل تشعر بالسعادة؟

– جدا..

– عال.. وهو المطلوب..

وصمتت قليلا وعاودتها من جديد رغبتها فى التفوق فقالت:

– مـاذ تعمل لو أن أبـى فاجأنا بالركوب مـن المحطة القادمة وسألك عن معنى هذا التصرف؟

فشرد وعيناه تقطعان الفضاء. ثم ابتسم وقال:

– صحيح ماذا أعمل؟ سؤال وجيه، لكن.. ماذا تعملين أنت؟..

فضحكت وهى تكاد تسـند رأسها إلى كتفه حتى لفحت أنفاسها خـده، وعلى بعـد عدة كيلو مترات من القاهرة وقفت السـيارة فى محطة ريفية.

كان هنـاك خمائل من النخـل وتزع جانبية، والشـمس زاهية كأنها فى الربيع فأخذ الحبيبان متاعهما ونزلا، واستأنفت السيارة رحلتها، وما كاد ضجيج المحرك يختفى حتى أحسا أنهما وحدهما وأن الأرض لهما، بكل انبساطها وخضرتها وما تحمل من خيرات.

لم يفكـر إلى أيـن يتجهان فكل اتجاه كان صـالح لهما، كان كل منهما يقول لنفسه: «ماذا لو كانت الحياة هكذا»؟

وسـارا متلاصقين أو متماسـكين، والنخل هادىء يهمس سعفه فى رفق، وشـتيت من السـحاب على شكل زغب الريش ينتشر فى السماء..

نظرت إليه «ثريا» بعينيها السكراوين وهمست:

– «رضا» عندكم نخل؟

– نعم عندنا..

– وهل تسلقت يوما نخلة يا «رضا»؟

– نعم.

فنظرت نظرة جانبية وابتسمت فى خبث:

– هيه.. يظهر أن هدوئك هذا مصطنع.

– لماذا؟

– ووصلت إلى البلح فى نهاية الأمر أو رجعت بلا فائدة؟؟

وخنقها الضحك واغرورقت عيناها بالدموع، ففهم قصدها.. إنها تتكلم عن الحب والعناء الذى يحف طريقه، فجاراها وهو خجلان، وتدافعا إلى بقعة جافة على الطريق وجلسا يتحدثان.

وشعر «رضا» فى ذلك اليوم أن الحياة من الممكن أن تستقيم كما صفت هذه السماء بعد تكدر، لكن شيئا طارئا جعل قلبه يرتجف هو تصوره أن يعيش يوما ما بدون «ثريا».

وكانت هى فى هذه اللحظة تغنى بصوت خافت، وتأكد «رضا» أنها لا تشعر بوجوده وحتى وجود نفسها، وكان ذلك طبيعيا فقد لمستها العصا السحرية وانسحبت وبقى أثرها يؤدى غرضه، وليس ضروريا أن تبقى العصا.

وفى خلال هذه الساعات كانت نفسه قد أشبعت بأشياء كثيرة أهمها أن يسافر، ومستعد لأن يلقى الشيطان وجها لوجه.. فى سبيل أن يدخل هذه الأرض.. ومعه.. ثريا.

* * *

وعادت بهما سيارة أخرى بعد الظهر فى جو غائم، كانت الشمس قد غطيت بالسحاب و «ثريا تحس بصداع، وثقل كأنه نوم، لعله مخاوف مدفوعة اخترقت نطاق الشجاعة أو تغلبت على سكرة الحب.. فعندما تهبط درجة النشوة ترتفع درجة المخاوف..

وافترقا فى ميدان الجيزة، وبدأ كل شىء متغيرا عن ساعة الصباح، كأن الحرب نفسها قد ألقت على القاهرة أعباء جديدة، فقد كان سيل من الدبابات يتجه نحو الهرم والناس يحملقون إليها فى وجوم.

وبدا «رضا» طوال هذه الليلة مهموما ثقيل النفس.. أحس كأنه جند قبل سن القرعة.. وبدا أن المهمة أضخم منه، لكنه ذكر الشظايا التى تتطاير فى سماء القاهرة والضحايا الذين يموتون، والأحياء الكاملة التى دكت فى الإسكندرية. فهز كتفه فى استخفاف: «ما أتفه الحياة.. لولا الحب.. ما كانت تساوى الشهيق والزفير». وكف عن التفكير.. وتقدم الليل وكل شىء ساكن وتمنى أن ينطلق مدفع أو

تنذر المدينة بغارة، لينزل إلى «ثريا» لكن شيئا لم يحدث، وتناهى إليه ضحك السكارى من «البوظة» كان كل شيء مطمئنا فى هذه الليلة.. ثم جاءه صوت الصديقين اللذين يركبان الترام من المحطة القريبة وكان أحدهما يغنى.. «على بلد المحبوب ودينى». بلسان متلعثم، والثانى يهلل فى سعادة ويقول بين لحظة ولحظة: «خدنى معاك، .. آه.. آه.. خدنى معاك.

ولما سمعا صرير الترام آتيا، أطلقا ضحكة طويلة تحية له، صمت بعدها كل شيء.

* * *

opeikan.com

أبراج الحمام

حين كانت الأم واقفة على سطح الدار فى موطن أبيها تحملق نحو الجنوب الغربى لترى النخل وأبراج الحمام فى عزبة «ماضى» كان ابنها «رضا» يدخل مكتب الأستاذ البتانونى المحامى فى المركز.

وفى شوارع البلدة عرف وجوها لم تعرفه.. كانوا أندادا لأخيه، أما أنداده فلم ير أحدا منهم، وحتى لو قابله أحدهم فمن المتعذر عليه أن يعرفه فقد غيرت الأيام كل شىء.

ولم يكن يحمل خطة، وكل ما دفعه إلى هذا الموقف هو شهرة الرجل فى الإقليم وقدرته على حل المشاكل بطرقه الخاصة «بسيفه أو ذهبه».

وفى حجرة انتظار كبيرة جلس يرقب دوره بعد أن أكد للوكيل أنه جاء بمشورة أحد المحامين المعروفين فى القاهرة، كان قد قابله هناك فأشار إليه أن يأتى إلى الأستاذ البتانونى فهو وحده القادر على حل القضية.

كان «رضا» ينتظر فى حجرة كبيرة أقرب إلى دواوير العمد منها إلى شىء آخر فيها وجوه متناقضة وأزياء مختلفة: ريفى طويل الشارب

يبدو عليه الثراء ومعه تابع فى كتفه بندقية، ومتصوف بجبة وقفطان وعمامة خضراء ولحية فتية ووجه نضر، وشاب مطرق فى تفكير مائل بعنقه إلى اليمين فى فمه غليون وينفث الدخان فى هموم، وصوت امرأة يرتفع فى مكان ما غاضبا، ورجال من كل نوع وسن.

كان الأستاذ البتانونى يعانى فضولا وقلقا على قضية مصر وهو الاسم الذى أطلقه وكيله على قضية «رضا».. لأنها من أهم الحوادث فى تاريخ حياته المهنية. وإذا جاز أن يجىء لعيادة الدكتور نيقولا فى هذه البلدة أحد المرضى القادرين فى القاهرة لإجراء عملية جاز بالتالى أن يحدث هذا بالنسبة لمكتب الأستاذ، لذلك كان من الضرورى أن يهتم بالأمر.

ودخل عليه «رضا».

لم يكن فى الحجرة شىء أنيق، كانت واسعة ظاهرة الارتفاع يتدلى من سقفها فى سلك معدنى مصباح أثرى يشعل بالليل، وفى ركن قريب تأخذه العين موقد من النحاس فيه رماد بائت، أما الأستاذ فقد قام نصف قومه وسلم على «رضا» الذى انحنى فى توقير وأمل، وأتيح له بعد ذلك أن يتبين طلعه الأستاذ: رجل فى الستين على التقريب طويل الوجه ريفيه، لا يبدو عليه كثيرا هيئة المتعلمين. له شارب غزير الشعر مقصوص لم يتغلب عليه الشيب. أسمر، خافت الصوت، يغمز بإحدى عينيه ويمصمص بشفتيه، إذا وجد نفسه محتاجا لفرصة تفكير أو عاجزا عن الرد.

وجــو الحجرة تفوح منه على العموم رائحة السمســرة أكثر مما تفوح رائحة البحث.

وحملق «رضا» فى لافتة كبيرة وضعت خلف ظهر الأســتاذ فيها صورة ميزان – رمز العدل – وفوقها آية قرآنية: «إن الله يأمر بالعدل والإحسان»، ثم سحب نظره ليلتقى بنظر الأستاذ فرآه متربصا كأنه صيد، وغمز بإحدى عينيه عدة غمزات، ثم مصمص بشفتيه، وأبدى ترحيبا، وجد «رضا» بعده نفسه وقد انطلق فى الحديث..

– إن قضيتى هنا فى الريف.. وهى قضية بلا وثائق.

وســكت الشــاب ونظر للميزان والآية ومصمص الأستاذ بشفتيه وأغمض عينيه فى هذه المرة ثم رد كمن يحلم:

– آه.. قضية بلا وثائق.. هيه.. لابد أنها من القضايا «إياها».

– القضايا إياها؟

وتلجلج الشاب وعاد فاسترد رشده.

– إننى على كل حال سأشرح الأمر لسعادتك.. إن الحق الشرعى كما قالوا لى – لا يحتاج إلى وثيقة.. لكن.. أنا..

– أكمل يابنى.. إننى أسمعك.

– كان أبــى من أغنياء هذه المنطقة، مــات عن مائتى فدان لى أنا وأخى الكبير، لكن أخى اغتصب حقى.. آ..

ومصمص الأستاذ بشفتيه وغمز بإحدى عينيه بطريقة عصبية ثم سأل بلهفة:

– أنت من هنا إذن؟ لكن الوكيل قال لى إنك من مصر.
– كلانا صادق..
– عظيم، ومن يكون المرحوم أبوك؟
– هو.. الحاج.. الحاج «ماضى»..
فرد الأستاذ كمن تذكر شيئا بعيدا:
– هيه.. إذن أنت ابنه الثانى؟
وأخذ يهز رأسه بحركة ظن «رضا» أنها لن تتوقف وهو يحملق، وعيناه نصف مغمضتين كأنه متعب، ولم يستطع الشاب أن يستنبط شيئا لكن فترة صمت ظللت على الحجرة انبعثت خلالها كحة المحامى ورائحة رماد النار، وصوت فرس يصهل على باب المكتب بانتظار أحد الزبائن، ثم تبدد الصمت بقول الأستاذ بخفوت كأنه مناجاة:
– قضية بلا مستندات.. نعم.. هيه؟. وما العمل؟
سأله «رضا» فى قنوط:
– هل أفهم أن سعاتك على علم بالموضوع!
– نعم.. نعم يا بنى.. فملاك الأراضى من طبعهم فى كل منطقة أن يحفظوا تاريخها كما يعرفون حدودها، وأظن أن والدك رحمه الله.. كان قد باعها كلها لأخيك.
وتنحنح..
– كل هذا زور يا سيدى.. آه.. وهل سعادتك إذن تعرف ماذا كان أبى؟

قال فى ابتسام:

– كان تاجر مواشى:

– وكان مريضا بالصرع، لعلك تعرف بقية القصة، و. وأنا. أنا..

وأخذ الشاب يبحث عن ريقه ليكمل الكلام، كان ريقه قد جف، وطاف بخاطره ذكريات أمه وأبيه والطفولة والليلة التى لا تنسى. ثم ليالى جوع ومخاوف وبدت صورة الميزان تظهر له من خلال الضباب الذى فرضته الدموع وكان المحامى مطرقا يفكر وصهيل الفرس يأتى من الخارج كعلامة تستعجل الرحيل، وفجأة وجد الشاب نفسه يبكى.

نظر إليه المحامى والدهشة فى عينيه وأخذته حركة عصبية فأخذ يغمز باستمرار. ودق الجرس وطلب له شرابا دافئا، ثم سأله بعد أن هدأ:

– هل أنت مستعد للإنفاق على هذه القضية؟

فأشار بالإيجاب. فرد المحامى بصوت خافت:

– لكنى لا أريد مالا.

فاستنار وجه «رضا» بالبهجة وبدت عليه براءة الطفل.

– وهل معقول يا سيدى أن رجلا مثلك.. «ولم يكمل حديثه».

فتخايلت على شفة المحامى ابتسامة فذة، هى وحدها التى بدت تحمل الأستاذية لأنها أشارت إلى معانى الخديعة فى ذلك الإنسان الذى يستمد قدرته فى هذا المكان من أرضه لامن مهنته. تنهد أخيرا وقال للشاب:

– قضية بلا مستندات تحتاج إلى إجراءات غير عادية.. نعم.. هل تفهم معنى إجراءات غير عادية؟ ولابد أن تكون الأتعاب عينيه.. آخذها بطريقتى..

– عينيه! ماذا أفهم.. يعنى.. آ..

– نعم.. لى عشرون فدانا من نصيبك الذى يقارب مائة فدان..

وصهل الحصان كأنه جريح، وترددت عين رضا بين الميزان والآية وموقد النار، وذكر أشياء كثيرة كان أهمها «ثريا».. وأحس طنينا فى أذنيه كأنه يغوص فى الماء وثقلا فى أوصاله: «يارب.. إنى أكاد أسقط على الأرض».

– موافق يابنى؟

– ...

– فكر.. ثم ارجع إذا أحببت. إن الموضوع شائك كما ترى.. رحم الله والدك.. رحمه الله..

ودق الجرس فدخل الكاتب.. فطلب الأستاذ من عليه الدور وخرج «رضا».

* * *

شعر أنه من المحال أن يبيت فى هذه البلدة حتى لو قدر كأن كل الذين يصادفونه فى الطريق قد اغتصب كل منهم شبرا من أرضه فضاعت. كان موقنا أن الدنيا كلها تآمرت عليه، فقد كان متوقعا أن يطلب الأستاذ البتانونى أى مبلغ من المال، لكن..

كانت مهمة «رضا» حيال نفسه أن يعرف: «بكم يستطيع أن يسترد أرضه؟» إنه قادر كأى قوة عمياء على أن يقتل «حمودة» وبعد ذلك ستسير الأمور بطريقة لا يعلمها إلا الله.

إنه لم يتزوج بعد أن طلق «زينب» والخلاف والدسائس بينه وبين أصهاره قائمة على قدم وساق وهناك ناس يزكونها وقضايا نفقة ومؤخر صداق ومشاغبات ريفية كالحرائق وإغراق الأرض، لكن ليست أمثال هذه المعارك حاسمة بالنسبة لاسترداد الحقوق..

«هناك أشياء ضخمة يجب أن تعمل» وتنهد، وأحس أنه بلا نصير، كانت قطارات البضاعة تمر أمامه فى بطء تحمل بالات وصناديق وقمحا والأفق الذى نشق نسيمه يبدو ضيقا مكتئبا فأحس أنه فى حاجة إلى صدر.. صدر حنون ويد تمسح على رأسه، وأنامل تتلقف دموعه وتواسيه، فذكر «ثريا».. نعم وعم «جابر» عون مادى وعون روحى.

وبشعور جارف أحس أنه يود أن يملك «ثريا»، وفكر.. هل تحب هى أن تعطيه شيئا؟

ودخل القطار وركب «رضا» ولما مر على برج من أبراج الحمام تذكر دار أبيه وشعر بوطأة الظلم.

وبعد دخول الليل بقليل كان يصعد سلم بيته فى القاهرة. فقطع الدرجات الأولى من المدخل فوجد باب «ثريا» على يساره قبل أن يستدير متجها إلى فوق وكان نور خافت يأتى من الداخل ونغمات

الراديو تغلب على كل صوت.. وفجأة سمع ضحكة عم «جابر» متدفقة ريا، منبعثة من قلب خلى لا يعرف الخوف، فاضت الطمأنينة منه على شكل ضحكة، وبعدها سمع ضحكة أصغر عرف أنها لإحدى البنات.. جميلة أو علية.. فلم يملك إلا أن دق الجرس.

وفتحت «ثريا».. كان واقفا فى الظلام ولكنها عرفته، كأن رائحة الحيرة فاحت من ثيابه:

– رضا؟

– نعم..

فهمست بحنان:

– ادخل.

فعبر فى النور، ونظرت إليه فبدا كأنه مريض فأحست أن قلبها يخفق، وقابله عم «جابر» بالترحيب والتهليل وطلب عشاء. كان فى جلباب من الكستور مفتوح الصدر يتكلم عن آخر أنباء الحرب مرددا ما شاع فى هذه الأيام من أن الصيف القادم سيشهد اندحار الإنجليز، وأن المصريين يستعدون للقضاء على جيوشهم فى مصر بحركة وطنية سيقودها الشباب.

– وعند ذلك يا رضا تنتهى قصة الإنجليز عندنا.. آه.. إن «قضية مصر» يا رضا..

ولم يسمع شيئا مما كان يقول عم «جابر» فلقد نقلته الكلمة الأخيرة إلى حيث كان صباح اليوم وتذكر ما دار بينه وبين الأستاذ البتانونى فلم يجد بدا من أن يعرض دخيلة نفسه خصوصا لأن عينى

«ثريـا» الفاترتين كانتا مائجتين بالقلـق، فقص القصة بحذافيرها ففغر عم «جابر» فمه وقال مستنكرا:

– يا سـلام.. يشـتغل بالنسـبة.. حرام.. لو أراد مالا لكنا تحت أمرك، لابد أن أحدا يشتغل لحساب هذا الرجل لأن الذى طلبه ممنوع.

ثـم قام فجلس بجواره ووضع يده الغليظة على عاتقه وقرب منه وجهه الشهم وقال له:

– قل يا رضا: ماذا أقدر أن أصنع لك؟

وضحـك ثانيا بخلو بال، لم يكن قـادرا على أن يعيش فى الهم أكثر من لحظات واستطرد:

– هـل تحب أن أذهب إلى البتانونى هذا وأعمل به ما عملته فى عسـاكر الإنجليز فى الخطاطبة.. أو تريد أن أذهب إلى أخيك.. و.. «ثم أحس بالخجل فاستدرك»:

– لا مؤاخـذة. لم أغلط.. لكن.. الحق يعلو ولا يعلى عليه.. هل أخوك أعلى من الحق؟

ولم يرد الشاب..

وخرجت «ثريا» من المكان فقد كان الموقف بالنسـبة لها مؤثرا.. ودخلت إلى الحمام وأخذت تبكى، وانطلقت صفارة الإنذار فحمدت الله لأن كل أحزانها ستتوه فى مآسى الليل.

* * *

وعند الصباح لم يستطع «رضا» أن ينهض.

وعند خروج «ثريا» إلى عملها قابلها البواب، كان يحمل فى يده ليمونا ودواء مسكنا، وتقابلا وجها لوجه وهو يعبر الحوش، ولم تدر «ثريا» لماذا وقف أمامها كأنه يمنحها فرصة لأن تسأله عن شىء، وعلمت منه أن هذه الأشياء لـ «رضا» فأخذتها منه وصعدت إلى فوق، ولم يستطع «رضا» أن يتبين وقع أقدامها فقد كانت تلبس حذاء بلا كعبين.

ودفعت الباب ودخلت ففتح عينيه فى دهشة، ونهض جالسا فى الفراش وقد تنبه كل شىء فيه، ووضعت «ثريا» حقيبة كتبها ومامعها من أشياء ورقصت على فمها ابتسامة ملؤها الطمأنينة والحب والوداعة، وفى وهلة لا تزيد على طرفة عين أحس أنه «مالك» الدنيا. وابتسم لأن كلمات «بلا مستندات» رنت فى أذنه كأن فما يهتف بها، فوجد نفسه محتاجا إلى تأكيد السعادة فأغمض عينيه وفتح ذراعيه، ونادى باسمها فتقدمت نحوه حتى جلست على حافة الفراش، وعندما لف ذراعه حول خصرها دفعته بلطف وكل شىء فيها خائف وهمست:

– جئت إليك.. لأنك حزين.. وربما كنت مريضا.. وربما كنت محتاجا إلى «ثريا».

وهمس:

– نعم.. حزين.. ومريض.. ومحتاج إليك.

فعضت شـفتها وهى تدفع صـدره بكلتا يديهـا، وحملق فرأى أمـارات الخوف باديه على وجـه ظن أنه لا يعرف الخوف فأحس فى قرارة نفسـه بتخاذل شديد، نفس المشاعر التى تنتابنا حتى لو هتكنا السترحتى عن ضريح مشعوذ.

وأطرق خجلا وتنهد:

إننى أتعس إنسان..

فاستردت نفسها:

– هييه.. لا تقل هذا يا «غزل البنات».

وضحكت فى رقة وخوف.. ثم نظرت فى ساعة معصمها وهمست:

– الحصة على وشك أن تبدأ.. يجب أن أنزل..

فرد فى قنوط:

– انزلى..

فتلكأت تنتظر وردت بلهجة واعدة تملأ القلب حبا وأحلاما:

– فى ساعة أخرى.. ساعة لا تكون أنت بانتظارها..

وتقدمت منه ومهدت له طريق القبلة.

فنام بعدها حتى الظهر..

وقبيل المساء عادت إليه، صعدت إليه هى وأمها وأختها الصغيرة وسهروا بجانبه يثرثرون وهو فى الفراش.

وعندما انطلقت صفارات الإنذار فى آخر السـهرة لم يكن قادرا على النزول.

صعدت إليه «ثريا» وجلست إلى جواره.. كان كل شيء فى المدينة يهتــز ولكنهما كانا يضحكان، كانت الرعشــة تســرى فى أوصاله فتقــترب منه وتحكم الغطاء حول قدميــه، وتمنى أن يموت لكنها كانت هى على العكس.. تحب الحياة..

وفى الصباح صعدت إليه..

كان لا يــزال فــى الفــراش، وكانت هــى لا تزال فــى قميص منزلى، وأمها فى الحمــام، وإخوتها فى المدارس، وأبوها فى قطار الإسكندرية.

ولم تدر كيف اندست فى أحضانه ولأول مرة فى تاريخ عذرتها أحست بخشــونة الذقن.. ونعومة النداء وحرارة الأنفاس، ولكنها ما لبثــت أن نهضت بقوة لاعبة «الأكروبات» حين تخترق طوقا من النار وتنتصب منتصرة.

سألها فى عتاب ورقة:

– لماذا تخافين منى؟

همست:

– أنا لست خائفة، لكن الذى أفعله هو طريقة لأوكد لك.

– ماذا

– إننى.. أنت فاهم!

وصمتت، وصمت وغطى وجهه بذراعه وهو راقد وهى واقفة على مقربة من الفراش فأمسكت ذراعه ورفعتها وحملقت فى عينيه:

– إن ميعاد نزولى قد حان، وهناك أشياء أخرى منها.. أمى..

فرد كأنه يناغى أمه:

– وهل تتركينى:

فأرسلت ضحكة طويلة حذرة.. وردت بإيماءة رأسها، وشفتها تهمس وهى تتراجع بظهرها حتى وصلت إلى الباب:

– نعم يا غزل البنات.. سأتركك الآن..

* * *

obeikan.com

الحل الوحيد

كانت سيارة «حمودة» فى طريقها إلى الإسكندرية لبعض شئون الزراعة والنزهة والشهوات، كان منزويا فى أحد أركانها ومستلقيا فى راحة والجو دافىء تملؤه روائح الصيف، وعلى وجهه علامات تفكير عميق يؤكدها أنه يتنهد بين حين وحين.

إن الذى يسوق به السيارة هو «حسن» صديق أخيه بعد أن تعلم هذه الحرفة فى الجيش، ولم يكن فى المنطقة سائقون، كلهم قد اشتغلوا بمرتبات عالية عند الملاك الجدد أو فى الجيش الإنجليزى. ومن الغريب أن يكون «حسن» عارفا لمعظم ما يدور فى رأسه، وكان يلاحظ وجهه المعكوس فى المرآة التى أمامه ويحاول أن يجد شيئا من الملامح بينه وبين «رضا». فرق بين الوجه المكتنز الدموى الأرعن وبين الوجه الأسمر النحيف الطيب. وفرق بين الجثة التى يملؤها الغضب لأتفه الأسباب وبين الروح الوديعة لأخيه «رضا»: حقيقة أن له أخلاق الأرناؤوط.

هذا ما قاله «حسن لنفسه وهو يبتسم، ومالبث «حمودة» أن تنهد وتقلقل وانتقل إلى الركن الثانى من العربة، ثم خاطب السائق وكأنه شخص آخر فقد أقلقته الهموم وأحس بحاجة إلى الكلام!

– هل تعرف يا «حسن» أننى أصبحت أكره الجرايد؟

– لماذا يا سيدى؟

–صدقنى أننى أصبحت أشعر برعب حين أراها.. إن الطريقة التى اتخذها معى أعدائى طريقة لا تخلو من اللؤم.. طريقة أصبحت معها عاجزا عن أن أضعهم تحت يد القانون.

– أعرف يا سيدى.. أعرف يا سيدى.. كل الناس يقولون هذا..

فسكت «حمودة» ثم استطرد:

– عندما تسلمت أول خطاب وفتحته وجدت فيه قصاصة من إحدى الجرائد فيها وصف لجريمة قتل ابن لأبيه بسبب الحرمان، قلت فى نفسى إنهم لن يعودا ثانية، لكنى أصبحت أتسلم كل أسبوع أحدث ما ينشر فى صحف مصر عن جرائم القتل مقصوصة ومرسلة إلى بالبريد.. وأظن أنه لو كان أحد فى مكانى لما عرف النوم..

– صحيح ياسيدى..

فتنهد وأشعل سيجارة ثم عاد يقول وهو يضحك فى ألم:

– والغريب فى الأمر أننى أكتم كل ما يقع لى ثم أفاجأ بأن الناس هم الذين يخبروننى به.. غريبة.

– غريبة صحيح..

– تسلمت يوما ما خطابا من الخطابات المعهودة وعندما فتحته وجدت به قصاصة من جريدة باللغة الإنجليزية، وبدون تفكير.. عرفت أنها نسخة من القصاصات العربية التى أتلقاها بالبريد عادة.

– غريبة.

– ولم أكـذب خبرا، فقد أعطيتها لأحـد أصدقائى فلما ترجمها كان ظنى فى محله.. ويومها ضحك صديقى وقال لى: «هل أنت مغرم بالجرائم؟» كأنه لم يعلم شيئا..

قال «حسن» فى نفسه: «إنك سيد كل جريمة»..

ثـم ظلل علـى العربة صمـت.. صمت لم يسـمع فيـه إلا أزير المحرك. كان متشابها ممتدا كأنه طريق بلا معالم.. وأفكار الاثنين فى السـيارة كل فى اتجاه، وكان «حسـن» سـعيدا بشقاء هذا الذى أشـقى نفوسـا بالسـلب والذل، والتهديد، وكان يقول فى نفسه: يجب أن يتم كل شـىء بسرعة لأنه بمجرد أن يتخلص من مشاكله هذه سيتزوج وربما أنجب، وبذلك تضيع الفرصة.

– لا تفكر يا سيدى فالله على الظالم.

وحملـق فى المرآة الصغيرة فرأى السـيد ينتفض، وكان عليه أن يردد ما قاله السائق وإلا كان هو الظالم، فقال فى فتور:

– صحيح.. والله على الظالم لكن..

– نعم يا سيدى..

– هناك نوع آخر مـن الخطابات وصل أول واحد منه منذ ثلاثة أيام.

وهز كتفه فى استهزاء واستطرد:

– لم يعد هناك سر، غدا سيحدثنى الناس عنه، فلماذا لا أقوله أنا؟ هل هناك شياطين يعرفون ما يحدث؟ أحسن ما يجب أن أعمله هو ألا أبالى.. ألست معى فى ذلك يا «حسن»؟

– نعم.. معك.. وأعداؤك كثير يا سيدى.

ومصمص بشفتيه فبدت بوادر الغضب على وجهه لكنه تمالك نفسه وعاد يسأل:

– أعدائى كثير؟ لماذا؟ إنها غيرة، غيرة حقيقية.. أليس كذلك يا «حسن». أنا لم أسىء، لأحد طول عمرى.

– أى نعم غيرة، غيرة من غير شك.

– فتحت خطابا فوجدت به ورقة بيضاء.. فقط.

– بيضاء؟؟

– نعم.. وفى وسطها بقعة أظنها من الحبر الأحمر.. بقعة كبيرة..

فرد الشاب فى غباء:

– حبر؟ وماذا يقصدون؟

– التهديد بالقتل؟ فهذا معناه الدم.

وسكت وعاد يقول فى هدوء لا يخفى غليان صدره:

– لكن كل هذا لا يهمنى، لو كان رجل آخر فى مكانى ما عرف النوم..

وسكت ثم ضحك ثم سأل:

– هل سمعت أحدا يتكلم عن أخبار أصهارى الجدد؟

– لا يا سيدى..

– غريبة، إنها أسرة مخيفة جدا.. عندما يعرفون اسمها سيموتون من الرعب.

– يجب أن تعجل بهذه المصاهرة فالمثل يقول: العصا السابقة من الجنة.

فرد برعب:

– هل تعتقد أن يقدم أصهارى القدماء على جريمة؟

فقال «حسن» وهو يكتم انفعاله:

– الله أعلم.. لكن.. لقد سمعت خبرا غريبا..

– قل يا حسن..

فتردد ثم قال وهو ينظر إلى الأمام حتى بدا أمام عجلة القيادة كتمثال من الشمع:

– إنك يا سيدى لا تصدق أقوال المخلصين.. إننى منذ دخلت فى خدمتك، وأنا أدفع عنك مالا أستطيع أن أبوح له..

فظهر الخوف فى عينى «حمودة» وارتعشت السيجارة بين أصبعيه وقال:

– قل فلن تخلو الدنيا من رجل مخلص..

لكنه لم يقل شيئا واعتذر عن الحديث، فعاد السيد يلح عليه حتى قال له:

– هل فرزت حضرتك كل الأوراق التى تثبت ملكية.. آ..

فرد «حمودة» فى رعب:

– ملكية ماذا؟

– ملكية أى شىء تملكه.. أى شىء يا سيدى.

– نعم. أنا متأكد أن كل أوراقى موجودة.

– حتى ما يثبت ملكيتك للعزبة؟

– ملكيتى للعزبة؟ وهل فى هذا نزاع؟

ثم تلجلج ثم استرد منطقه وقال:

– مؤكد..

وكان فى الوهلة التى نطق فيها بكلمة «مؤكد» أقرب ما يكون إلى رجل يحاول إقناع نفسه لا إقناع الغير. وطافت بوجهه سحابة سوداء وغابت الدنيا فى عينيه، وكانت حقول القمح التى كانت تنضج بريح أقرب إلى الخماسين. فصبغ الأفق بلون البن الفاتح وفى هذه الوهلة أحس «حسن» بلذة لا تقاوم، وذكر الثور الهائج الذى قذف بالكتاب إلى الماء ثم جلده بالعصا هو و «رضا» ليلة هربا منه فى الكوخ، هذا الثور القديم هو الثور الجريح المتهالك فى ركن السيارة والذى عاد يقول من جديد بصوت هامس:

– مؤكد.. مؤكد.. لكن.. ماذا سمعت يا حسن؟

– إن صهرك القديم المدعو بالجناينى رجل جبار، لقد حرض بنته «زينب» على سرقة المستند الذى باع به المرحوم والدك أرض العزبة لك.

فقهقه «حمودة» قائلا:

– لكن ما رأيك فى أننى رأيته بعينى منذ ثلاثة أيام؟

فرد «حسن» فى هدوء غريب:

– اللغز ليس هنا يا سيدى.. اللغز فى أنهم وضعوا سندا مزيفا بين أوراقك وأخذوا السند الحقيقى.

– ماذا.. ماذا.. آ..

وغاص قلبه بين أحشائه. وكان «حسن» يرقب السحابات السوداء التى تذهب وتجىء على وجهه المحتقن.. ومن خلال الصمت عاد صوت السائق يقول:

– الظالم على ربنا.. لا تحزن يا سيدى.. ربما كان هذا دعابة..

فرد «حمودة» بصوت كسير:

– دعابة.. من غير شك هذه دعابة..

ثم سأل باهتمام:

– هل أنت مثلا تصدقها يا «حسن»؟

فأجاب «حسن» بحماسة:

– أنا؟ أنا يا سيدى؟ معاذ الله..

* * *

كانت صور من قصاصات الجرائد التى تصل إلى «حمودة» تحمل إليه نذر الموت تصل أيضا وبانتظام إلى السيد الجنابنى صهره

القديم. ولما تسلم السيد الجنايني تلك القصاصة التي أخذت من إحدى المجلات الإنجليزية وتحمل عناء ترجمتها وعرف الأمر سهر يفكر في طريقة للانتقام الحقيقي من صهره القديم..

وفي صباح اليوم التالي وهو سائر في أحد شوارع المركز يحس بثقل كل شيء فيه وثقل كل شيء عليه تقابل مع الأستاذ البتانوني وهو عائد من المحكمة وتصافح الرجلان، وبدا لكل منهما أن يتحدث إلى الثاني في أمر مهم في الفترة اليسيرة التي كان كل من الرجلين يهز فيها يد الآخر أثناء السلام. فقد فكر الأستاذ البتانوني أن يستعين بكل معلومات الرجل وأضغانه ضد «حمودة» إذا ما قدر لـ «رضا» أن يعود فيستعين به، وقد كان أمله في هذا لم يتضاءل بعد. وفي نفس الوقت طاف بخاطر السيد الجنايني أن يستعين بخبرة الأستاذ ليعرف مدى الطول الذي تصل إليه يد القانون في الموقف السخيف إذ يتلقى بين حين وحين قصاصة صحيفة تحمل نبأ جريمة.. ونطق الرجلان في نفس واحد:

– دقيقة من وقتك إذا سمحت..

ومالا إلى مقهى قريب تظل إحدى شرفاته الأرضية على الحقول وتظللها أشجار مزروعة حول القهوة، وكان الأستاذ المحامي أسبق الاثنين إلى الحديث فأخذ يسأل عن أسعار الفاكهة وعن الأرباح الضخمة التي جناها السيد في الموسم الماضي ثم عن إحدى القضايا المدنية التي تعثرت منذ سنوات ولم يحكم فيها بعد ثم مال فجأة على أذن السيد الجنايني وقال له:

– هل حقيقة ما أشيع أن ابنتك سرقت سند ملكية الأرض من زوجها قل إن..

ولم يترك الرجل المحامى ليكمل حديثه فقد أخذ يدافع ويقسم بغيظ مكتوم متوهما أن المحامى يستدرجه ليثبت عليه جريمة.. ربما كانت بإيعاز من خصمه وصهره القديم، وفى الوقت الذى كان الأستاذ البتانونى يضحك فى رضا وهدوء وصفاء متوهما أن السيد الجنايني إنما يجيب بما يجب أن يقال فليس من المعقول أن يعترف ببساطة بذلك العمل الخطير.. واستطاع المحامى من بين أيمان الجنايني أن ينهى إلى أذنه الحكمة والذكاء الذى تحلت به بنته وأهلها جعلهم يضعون مستندا زائفا بدل المستند الحقيقى، وأن من الممكن أن يكون هذا المستند وسيلة إلهية لفعل الخير.. الخير فى رد الحق لأصحابه متمثلا فى رجوع «رضا» والخير فى رد «الشر» متمثلا فى الانتقام من «حمودة».

وتنهد الرجلان، وطلبا قهوة من جديد، وتحدثا فى أشياء أخرى كانت بعيدة عن الموضوع لكن.. كان كل منهما يقول فى قرارة نفسه: «ليت هذا صحيحا» وكل منهما يعتقد أن الثانى يدارى الحقيقة عن صاحبه، ثم انصرفا على أمل أن يلتقيا..

* * *

وعندما رقد السيد الجناينى فى فراشه فى هذه الليلة وفكر فى الأمر مليا رأى من صالحه أن يشيع حكاية السند المسروق، وعندما أوى الأستاذ البتانونى إلى فراشه فى هذه الليلة وفكر فى الأمر مليا كذلك، رأى أن من صالحه أن يشيع حكاية السند المسروق، وعندما أوى ناس آخرون فى عزبة «ماضى» إلى مضاجعهم فى هذه الليلة على الخصوص رأوا أن من صالحهم جدا أن يشيعوا نفس الحكاية حتى وصل الأمر إلى حد أن تحدث عنه الغلمان فى العزبة..

وسهر «حمودة» ذات ليلة يفحص كل أوراقه، وكم تمنى أن تكون أمه قادرة على تمييز تلك الورقة التى اشتركت معه فى أخذ بصمات زوجها عليها، لكن أمه كانت قد فقدت بصرها، أصابها جفاف وراثى فى العينين فتحولتا إلى زبيبتين فى وجهها المكتنز.

ودخل عليها ابنها وحدثها فى الأمر فصرخت فى وجهه إنها لم تعد تريد شيئا، إنها لم تعد حريصة على أن تملك شيئا من الأرض التى لم تعد تراها:

– «اخرج.. لعنة الله عليك وعلى أرضك.. أعطنى بصيصا من النور وخذ طين الدنيا كلها».

وخرج وسهر يفكر حتى غلبه النوم.

وقبيل الفجر كانت النار مشتعلة فى البيت كله وكل الحجرات أصبحت طعمة للحريق وهو محاصر لا يستطيع الخروج، يختنق من الدخان ويصرخ وينادى الفلاحين، ولكن لا أحد يخف إلى

إسعافه. ورأى عند القنطرة التى تفصل بيته الجديد عن دور العزبة ثلاثة رجال حملوا بنادقهم ووقفوا وقد سـدوا الطريق على من يريد العبور، وتجمع الفلاحون ينظـرون إلى النار ليروا مصير «حمودة» وعندما كاد فراشه يشتعل استيقظ من النوم؟! فقام إلى قلة فى إحدى النوافذ وكرع نصفها، وجلس يفكر: «أهكذا يكرهنى الناس؟! لكن من هـؤلاء الذين كانوا يحملون البنـادق ويصوبونها نحو من يريد العبور لإنقـاذى؟» وخيل إليه أنه رأى الثلاثة: «حسـن» و «رضا» و «عـادل» وعلى مقربة منهم كانت تقف «بدور» وزوجها الخفير، وصهره والد «حسن».

وتنهد واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم ثم تذكر «السند»، أليس من الجائز جدا أن تكون الإشاعات صحيحة؟

وفـى خلال الأيام التالية تلقى رسـالة جديدة، وأحس قلبه أن بها شرا، شعر كأن الكلمة الأخيرة فى مصيره خطت بهذه الرسالة. شـد ما أصبح يكـره الصحف والمجـلات والإشـاعات والدعايات والرسائل؟! إن حياته أصبحت تعيسة، هل من الممكن رتق كل هذه الفتوق؟ «ليتنى أعود صغيرا وأبى معى». لكنه ما لبث أن شـعر أنه ليس أهلا للهزيمة، لابد أن يسارع بمصاهرة أسرة «السبع» فأبناؤها قادرون على قهر الجريمة.. بالجريمة.

«هذا هو الحل الوحيد. نعم..».

وعندما أصبح الصباح شـعر بضيق فى صـدره، ظنه بادئ الأمر معنويا، لكنه ما لبث أن رآه جسـمانيا. كان عاجزا عن أن يتنفس، ولم يكـن هناك بد مـن أن يذهب إلى الطبيب فاتجـه نحو المركز، وكانت عيادة الطبيب على مقربة من مكتب الأستاذ البتانونى الذى كان عائدا مـن المحكمة. ولما التقى بـ «حمودة» تهلل وجهه وخفق قلبه وسلم عليه بود شديد وسأله: «لماذا لا يراه كثيرا»؟

وغمـز بعينيه ومصمص بشـفتيه، ولم يطلق كـف حمودة كأنه يريد أن يقول له شـيئا. وفى هذه اللحظـة التى بدأ المحامى فيها يقتنع بأنه لا داعى للكلام كان «حمودة» قد اقتنع بأن الكلام ضرورة ملحة، فمال مع المحامى إلى مقهى آخر وجلسا يتحدثان فى شئون بعيدة.. وكان «حمودة عازما على أن يسأله ليعرف مدى الطول الذى تصـل إليه يد القانون فى هذا الموقف السـخيف إذ يتلقى بين حين وحين قصاصة صحفية تحمل نبأ جريمة..

لكنه ما لبث أن عدل، وقبل أن يتجه الحديث وجهة أخرى قال له الأستاذ البتانونى:

– اسمع يا حمودة.. إننى لا أنكر عليك..

فهتف مرعوبا:

– خير..

– أخوك قد حضر إلى..

وعندئذ طافت بذهنه كل البلايا والأوهام.. لابد أن الذين سرقوا سند الملكية قد باعوه لأخيه «رضا».. «آه أيتها السافلة يا ابنة الجنايني.. عملتها فى ساعة أمان وباعتنى لأعدائى؟»

– أنا أعرف يا أستاذ لماذا حضر إليك.. لكن..

واحتقن وجهه حتى استحال من اللون الأحمر إلى اللون البنفسجى، وشرب البقية الباقية فى الكوب المثلج الذى تراكم الضباب على سطحه.

وقال الأستاذ البتانونى فى نفسه: «لابد أن أشربك يا ابن سمسار المواشى».

ثم أرسل ضحكة مؤنسة خالية من القلق، وقال لـ «حمودة»:

– أنت ترى أن أعداءك كثر، هل تعرف من هم الذين سيشترون نصيب «رضا» من الأرض؟

– لا..

– السيد الجنايني وأولاده.

– وما سند الملكية بالنسبة لـ «رضا».

فقهقه البتانونى ثم سكت، وداس بقيه السيجارة بكعب حذائه على الأرض غير المبلطة التى نمت عليها الحشائش، ثم نطق كما ينطق الحكيم المتمرس: «وهل الحق الشرعى فى حاجة إلى وثيقة؟ إنه ابن الحاج «ماضى» مثلك يا سيد «حمودة».

ولم يرد «حمودة». لم يعلق على الموقف. وتأكد بينه وبين نفسه أن «زينب» سرقت المستند ووضعت بديلا آخر زيف بمهارة..

كان الأستاذ البتانونى ينظر إليه ويغمز بإحدى عينيه، ويمصمص بشـفتيه وكان من المهـارة بحيث أنه هو الذى أنهى الجلسـة قبل حمـودة وانصرف الأخير وقلبه ملىء بالهموم. وبات الليلة التالية يفكر فيما يعمل.. هو.. والآخرون..

* * *

obeikan.com

طيف امرأة

فــى هذه الليلة الصائفة عاد عم «جابر» وفى جبينه جرح، وعلى الرغــم من أنه لم يســتطع الوصول إلى البيت إلا فى ســاعة متأخرة حتى ضمد جرحه فى قصر العينى فإنه عاد بادى المرح، فقد اشتبك فى معركة مع بعض جنود الإنجليز على مقربة من المستشفى..

ولم يكونوا فى هذه المرة قد ســخروا منه ولكنه رأى ثلاثة منهم يترنمون بأغنية ممطوطة ويتســاندون من السكر. وعند ميدان كلية الطب بدأ شبح امرأة تعبر الطريق متجهة إلى زين العابدين. ومع أن الوقت لم يكن متأخرا فإن الجنود بدأوا يطاردونها، ولاذت بالحائط فى خوف، فرأى أحدهم أن فرصة اقتناصها ســانحة، وساعد على هــذا الخاطر تلك الظلمة التى فرضتها الحرب على مدخل الشــارع الخالى من الدكاكين.

كان عــم «جابر» يــرى الحادثة منذ بدئهــا، ولم تلبث المرأة أن صرخت فلما اشتبك معهم فى العراك لاذت هى بالجناة، ثم ما لبث الأهلون أن تجمعوا وهرب العسكر بعد أن جرح عم «جابر».

كان يحكى ما حدث وهو يضحك:

– لقد اشتبكت معهم مرتين، مرة من أجل رجل، ومرة من أجل امرأة.

وفى مساء اليوم التالى كان عم «جابر» يعرض القصة على «رضا» فى إطار جديد زوقته المباهاة، لكنها كانت مشوية بخفة الروح، وعندما فرغ «رضا» من قوله وهو يضحك: «أنا أتنبأ بأنه سيكون لك يد فى تخليصنا من الإنجليز يا عم جابر – كان جرس الباب يدق. ولم تقم «ثريا» من مكانها، لكن ما لبثت إحدى أخواتها أن دخلت وقالت أن البواب يسأل عن «رضا»!

وكان الضيف هو «حسن» وتعانقا وصعدا إلى فوق، ولما استقر بهما المكان رأى «رضا» على وجه صديقه أمارات القلق ولم يلبث «حسن» أن أخبره باختصار بما جرى فى العزبة فى الأيام الأخيرة، وأن إشاعات تتردد بأن الأستاذ البتانونى سيكون وكيلا عن أبناء السيد الجنايني فى شراء نصيب «رضا» من الأرض، لأن «رضا» سيبيع لهم، وإشاعات أخرى تقول إن الأستاذ البتانونى سينوب عن «رضا» نفسه وسيأخذ عشرين فدانا باسم شقيقه.

والمهم فى الأمر أن إشاعة رابعة همس بها من يحب الحق ومن يحب الباطل، همس بها الناس جميعا – تقول: إن «حمودة» رأى أن الطريقة المختصرة لحل هذه المشاكل جميعا هى أن..» وسكت ولم يكمل ولمعت عيناه ببريق مخيف، وأتى إلى المكان صراخ امرأة من الحى المجاور، ثم غطى سكون، وعاد «حسن» يتكلم: إنه يعرف أين تسكن..»

وتذكـــر فى هذه الوهلة كل الجروح التى يعرف أصحابها. تذكر عم «جابر» والمرأة التى كانت ستسبى، والذين يحاربون فى الصحراء فى ســبيل مطامع رجل يســكن «برلين» وبقع الدمــاء التى يمتصها الرمل. وتذكر والده حــين كان يركب حماره ويطوف حول العزبة فى حر يولية، والعرق يبلل كتفيه، ومثواه فى المقبرة الصحراوية. وأمه.. والدنيا كلها..

وأفاق و «حســن» يضع يده على كاهله. وقام واقفا وقال له: «يهم أن تحافظ على سلامة نفسك، وإذا استطعت أن..»

كان يريد أن يقول له: غير مســكنك، لكنه لا يعلم مقدار العناء الذى سيتكلفه، وحتى لو كان «رضا» قادرا ماديا فقلبه عاجز عن أن يفعل. فلا أرض وراء أسوار «فيرونا».. كما خيل لروميو من قبل..

***

ولم يخف جرح عم «جابر» بالســرعة التــى كانت متوقعة فعاد إلى المستشــفى. وبقــى أنس العنبر طــوال المدة التــى أقامها، لكن هــذه الإقامة أتاحت لـ «رضا» و «ثريا» ســاعات لقــاء طويلة، فقد كانت مماشــى المستشفى وممراته عندما يكونان عائدين بالليل تملأ روحهما بالرهبة التى تجعــل النفس نزاعة لطلب الأمان، وعندما يخافتان بصوتهما، يجدان نفسهما وقد انساقا إلى المناجاة.

وفى الليلة التالية لحضور «حســن» وعودته من فوره إلى الريف كان «رضــا» و «ثريا» فى زيارة عم «جابــر»، وكانت علامات القلق

والضيق تبدو على «رضا» وأثناء عبور الممر المؤدى إلى الحوش الفسيح الواقع أمام كل الأجنحة، أمسك بكفيها.

وكانت كفه باردة مع أن الدنيا صيف، وضغط على أصابعها فتأوهت ثم ظنت كفها فى كفه، واستشعرت معنى القلق عندما التقت عيناهما، ولما وصلا إلى الفناء الكبير أشعرهما الليل وسعة المكان بالوحدة فقال «رضا» وهو يأخذ ذراعها تحت ذراعه ويضغط عليها بشدة:

– عندى خبر جديد..

ردت وهى تغالب ضحكها، فقد كان مفهوما أنه سيحدثها عن الزواج لأن كل من حولهم تحدثوا عنه:

– إننى سأعملها حالا يا «ثريا»..

– حالا.. حالا؟

– نعم يظهر ذلك..

– لا تفكر فى شىء من هذا حتى تنتهى مشاكلك أيها الـ .. أف .. أف.. وضغطت ذراعه. وتلاصقا وهما ماشيان فكادت أقدامها تتصادم. عندئذ نسى ما كان يريد أن يقول. كان يريد أن يخبرها بأحاديث «حسن»، لكن لمسة الحب جعلته يتريث. وقبلها فى خدها وعنقها وهما يواصلان السير حتى إذا اقتربا من البيت بدت له حيلة، هى.. أن يسبقها إلى حجرته وأن تلحق به ليكون الوقت الذى سيقضيانه محسوبا على الوقت الذى قضى فى الخارج..

وشعرت بالخوف وبلعت ريقها ولم ترد، وأحس «رضا» بالخجل من الموقف. ولما خلع ملابسه وجلس خلف الشباك تمنى ألا تجيبه إلى ما طلب، أحس أن اليأس الذى ملأ نفسه منذ البارحة سيجعل منه كائنا سفليا يلوث أى نقاء، فلم تعد الدنيا فى نظره أكثر من بركة سمك يعيش بعضها على بعض فى هذا الماء الفاسد.

ولم تجئ «ثريا» فتنهد فى ارتياح، ودعا الله أن يكتب لها السلام فهو أعز نعم الدنيا تلك التى يظللها ليل لا تضيئه إلا النيران. كأنما كان خائفا أن يعديها مرضه أو ينقض عليها من القفص المفتوح الذى حبس فيه! وهو إن قدر له أن يفعل فإنه سيموت كمدا.

واستوقفته كلمة «الموت» فتذكر «حمودة».. ذلك الذى لم يستطع أن يشعر أن الدنيا قادرة على أن تسعه هو وأخاه! وضحك بصوت عال، وخيل إليه بعد أن صمت أن لضحكته امتدادا.. امتدادا رقيقا بجرس ساحر. ولم يصدق أذنيه، ولكن واقع الأمر أن «ثريا» كانت عند العتبة وهمست كأنها تدلله:

– لماذا تضحك وحدك! أيها المجنون؟

فلم يرد..

نظر إليها وظل جالسا فى مكانه واخضلت عيناه بالدموع، وكان على «ثريا» أن تفعل واحدا من ثلاثة: أن تسعى إليه حيث يجلس أو تجلس فى مكان آخر أو تعود أدراجها، وجلست على حافة

الفـراش بملابس الخارج فقام وجلس إلى جانبها وسـألته فى لهفة لا تخلو من الحزم:

– لماذا تبكى؟

– لأنى سأفقدك..

فردت فى عجب:

– أنا؟ مجنون.. من قال هذا الخبر؟

ثم ابتسمت فى طفولة واستطردت:

– «غزل البنات.. يا غزل البنات».

فأطرق، ثم قال وكأنما يستملى ما ينطق به من شخص آخر:

«إننى منتدب لمهمة.. مهمة قصيرة شاقة.. هى أن أقتل أو أقتل».

فضربت على صدرها وفتحت فمها، وهزته بيدها كأنما لتوقظه، فرفع إليها وجهه ثم وضع رأسه على كتفها وقال وقد طوقها بذراع:

– صحيح.. إن أعداءه الكثيرين اتخذونى سـلاحا ليحاربوه بى فهو يريد أن يرمى بالورقة الأخيرة.

هتفت بخوف:

– أنا معك.. لا يمكن أن تكون وحدك وقت الخطر يا «رضا» لكن أرجوك أن تترك هذه الأفكار الجنونية..

– يظهر أنك لا تفهمين ما تقولين..

– بالعكـس.. أنت الـذى لا تفهم ما تقول.. نحـن الاثنين فى خيمة ولن تسقط على رأسك دون رأسى.

وغابت المشــكلة وحلت محلها سكرة الحب شأن ساعات الخطر وخوف الفراق.

فاحتضنها وألقاها على الفراش، فهتفت وهى تدفعه عن نفسها:

– لا تخطئ الوقت.. المناسب.. دعنى..

فجلس وقد حمل رأسه بين كفيه وهتف بيأس:

– «ثريا».. إننى تعيس..

من خلال أهدابه رأى خيالها وهى تسوى شعرها وتقطع المسافة إلى البــاب لتخرج، وعند ذلك قال وكأنه يخاطب شــخصا آخر فى الحجرة:

– كنت على وشك أن أعديها بتعاستى..

* * *

ومرت على هذه الحوادث بضعة أسابيع.

كانت عزبة «ماضى» تتوقع كل يوم حدثا بعد الحريق الكبير الذى التهم قمح السيد «حمودة» وكان ينظر يومئذ إلى أيدى الفلاحين وهى تقــاوم النيران وهــو غير مقتنع بإخلاصهــم. وتتخايل أمام خاطره رؤيا البيت وهو يحــترق وفوهات البنادق التى حظرت على الناس عبور القنطرة، وبات موقنا أن بين رجاله من يعملون لحساب الغير ففارقته البقية من الأمان.

وفى القاهرة كان هناك حوادث تشــغل الناس فى كل مكان بدت مظاهرها مخيفة، والناس يتساءلون فى همس لا جواب له:

«ماذا يكون المصير عندما يدخل الألمان مدينة الإسكندرية؟ إنهم منها على بعد ساعات؟»

شغل أفكار الفلاحين فى الوجه البحرى هو ماء الفيضان فقد كان النيل مرتفعا جرى فى أبهته المشهورة نحو البحر حيث تقف مدينة الإسكندرية فى شجاعة منذ قيام الحرب، وقد سمع الفلاحون همسات عن نية الإنجليز إغراق الوجه البحرى بماء الفيضان لعرقلة تقدم الألمان..

وكان هذا شيئا مخيفا يعيد إلى الذاكرة قصة الطوفان.

وكان سكان «عزبة ماضى» يتناقلون هذه الأنباء بحذر وخوف وميل إلى التكذيب فى الوقت الذى كان «رضا» قد سمعها من عمال المطبعة، ورأى كثير من الجنود المقيمين فى القاهرة يتحولون عن أماكنهم فى حركة متسللة خائفة بدت حينا على شكل استعداد وحينا على شكل هروب.

وتهامس الناس بأن الإنجليز سيدمرون منشآت العاصمة الجميلة قبل أن يتركوها للألمان، وتكلم الناس جميعا إلا حكام مصر وبات سكان القاهرة ذات ليلة من صيف ١٩٤٣ وهم متوقعون أن يستيقظوا على أحداث هائلة.

وكان عم «جابر» خلال هذه المدة قد استرد عافيته وحمل من ذكريات المعركة وساما هو أثر جرح فى جبينه على شكل هلال وكان كلما وقف فى إحدى محطات السكة الحديد فى أى خط من خطوط

مصر، نادى بعض من يعرف ثم يطل من القاطرة، فى ملابسه الزرقاء ويرسل ضحكة صافية بيضاء من قلب كأنه لم يعرف الهم:

– ولد يا.. تعال.. تعال يا ولد.. لترى هذا الوسام وتتعلم يابنى ويشير إلى أثر الجرح ويتبادل السجاير والتحيات ثم يفتح الصمام البخارى الذى يطلق صفير القطار وهو يقهقه.

وعندما عاد من سفره الأخير كان يحس أن الدنيا على وشك أن تتغير، وعندما كانت بنته «جميلة» ترقص وهى تعبر الصالة، لأن موسيقى مرحة من الراديو أثارت إعجابها، كان يغمض عينيه وينهر زوجته التى تنهر البنية قائلا بصوت لا يسمعه سواها:

– إن الدنيا ستتغير.. حالا.. حالا.

ويشمشم ويهمس: «ألا تشمين»، أنا شخصيا أشم رائحة التغير..

أما «ثريا» فقد أصبحت بالنسبة لـ «رضا» خلاصة كل شىء، ورمزا لكل شىء: خلاصة النساء ورمزا للحب، خلاصة لكل ما يملك إنسان.. خلاصة ما يشفى من العذاب، ورمزا لأيام المستقبل، ولذلك فإن سخريتها من مخاوفه جعلته لا يفكر فيما قد يتهدده من أخطار، بل أخذ يفكر جديا فى السفر للقاء الأستاذ البتانونى مرة أخرى، وعن له ذات ليلة أن يذهب ليلقى «حمودة» وجها لوجه، ويتكلم معه بأى لغة ليسدل الستار على هذه المأساة.

وقالت له ثريا فى هذا اللقاء:

– مهلا.. إن «حمودة» مثل شيء يسقط من أعلى منحدر فلا يهم أن تفكر فى دفعه من الخلف..

فنظر إليها فى حبور حاول أن يداريه، وخيل إليه أنها أم تحول بين ابنها وبين الخطر فأمسك بيدها وطبع عليها قبلة وسألها:

– ماذا يحدث يا «ثريا» لو أنك فقدتنى؟

فمطت شفتها باستهزاء هزه من العجب، وظلت نظرته الحائرة تطلب الجواب حتى قالت:

– لن أشعر بشيء.. طبعا.. لأننى سأفقد.. روحى.

وكان الوقت عصرا وحديقة الميدان تعج بالناس، ولم تكن الشمس قد غابت بعد والمنظر تحت عيونهم من فوق أشبه بمولد على وشك الانفضاض، فقد كان الناس يحاولون أن يعودا إلى بيوتهم قبل حلول الظلام.

وودعته «ثريا» واتجهت إلى السلم، وكان السطح مضيئا بنور الشفق.. شفق ما قبل الغروب، فأحس بعدما سحبت كفها من كفه بشيء يسقط على الأرض كان له صوت هامس لا يسمع إلا فى لحظة سكون. فنظر فإذا فص خاتمها قد سقط من فوق كرسيه الذهبى.. فص من الياقوت أحمر صاف، وتسابقت إليه الأيدى، وكانت يده أسبق إليه، أطبق عليه كفه، فحاولت أن تستخلصه منه وقاومها ولكنها كانت على وشك أن تغلب، عندئذ غلبه الضحك فقذف به إلى فمه، ثم أطبق عليه شفتيه. لم تدر «ثريا» لماذا اعترفت بالهزيمة فهبطت وهى تقرقر بضحك مكتوم كطائر يمرح وقالت له:

– أنا أعرف ماذا تريد.. لكن.. غدا سآخذ بثأرى..

وأشارت بكفها تودعه وغابت عن عينيه.

لم يطـق أن يبقـى فى حجرته بعد ذلك، أحـس أنه محتاج إلى الهواء، وود لو أنه هناك فى الريف عند أمه، ليقف على الأقل فوق سطوح الدار ويرى ذوائب النخل وأبراج الحمام فى وطنه المسلوب. وحاول أن يعمل أى شـىء، فكر أن يدخل الحمام أو أن يطهو أو أن يذهب إلى القهوة. وأخيرا خطر له خاطر لماذا لا يذهب إلى الحلاق؟ هناك يقص شـعره ويقرأ المجلات ويسـمع آخر الإشاعات وأخبار السياسة.

واسـتراح لهذا الخاطر، لكنه تمدد فى الفراش، رقد وعيناه إلى السقف، والنافذة البحرية مفتوحة تجلب رائحة الصيف والخضرة وأرض الجنينـة والفيضـان، وفكر فيما عسـى أن تفعله أمه الآن.. وماذا عسـى أن يفعله «حسـن» ماذا يا ترى لو اكتشف «حمودة» أن «حسن» سر من أسرار بلواه؟

ولم يدر «رضا» بعد ذلك شـيئا. أخذته سـنة من النوم اسـتيقظ بعدها فإذا الساعة قد جاوزت التاسعة.

لبس ونزل مسرعا، وعند باب السلاملك قابلته «جميلة» فسألها عن الأسـرة فعلم أن عم «جابر» قد عاد للراحة وأن «ثريا» فى زيارة خالتها وأنهم يقلون سمكا.

ثم أخذ طريقه إلى الخارج.

كان دكان الحلاق خاليا من الناس، وقد أسدلت على بابه الزجاجى المدهون بالأزرق ستارة من قماش داكن. وقابله الأسطى بالترحاب وقد بدا عليه سرور يوم رابح، وجلس أمام المرآة وترك شعره للمقص وأذنه لفم الأسطى يثرثر.

وكان يشعر باسترخاء مثل الفتور الذى يعقب التعب، وكأن مشاكله قد صفيت أو متاعبه وهم زال. لم يكن سعيدا لكنه كان مخدرا.. فى استهانة بكل خطر حتى لو استدعى ليلقى حتفه..

وكان الحلاق يتحدث عن فضائح الإنجليز فى الشوارع وميدان الحرب ويفرض أن مصر تملك من الأسلحة ما يكفى ثم يتحدث عن النتائج الباهرة التى سوف يحققها المصريون.

وقطعت عليهم أفكارهم ضحكة صافية كأنها من قلب لم يعرف الهم..

كان عم «جابر» داخلا بعوده الربعة وجسمه السليم فى جلباب من التيل الأبيض وقد بدا وجهه الأسمر نامى شعر الذقن. وتبودلت كلمات الترحيب، ورأى «رضا» فى المرآة بريق الحب فى عينى الرجل. وجلس عم «جابر» على الكرسى الثانى وجاء أسطى كبير السن ليحلق له، فتبادل معه عم «جابر» أحدث النكت.

وفى هذا الصالون الواقع فى شارع قصر العينى على مقربة من مسكن الرجل والشاب كان أمام كل مرآة رجلان وكانت نظرات الرجال الأربعة تتلاقى عبر المرايا أثناء الحديث، وأزيز سيارات

الجيش الرعناء يقلق السكون وأصوات «موتوسيكلات المراسلة» يمرق كشريط من الرصاص المتصل فيغطى على أحاديث الرجال وهم يتكلمون فى بعض الأحيان.

ومر الوقت، كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة حين بدأ الحلاق المسن فى تهذيب شارب عم «جابر» وعند ذلك أشار عم «جابر» بيديه للرجل إشارة تدل على الأهمية فتوقف الرجل عن العمل وعلى فمه ابتسامة من يتوقع كلمة لطيفة. قال عم «جابر» باهتمام والكل ناظر إليه:

– اسمع يا أسطى عثمان، هل تعلم ماذا ستعمل الآن؟

فأومأ الرجل باحترام مسرحى:

– نعم سأقص أعظم شنب فى الدنيا.

فرد «جابر» من خلال الضحكة:

– عظيم.. هل علموك حاجة اسمها «التاريخ».

رد الأسطى وهو يحرك المقص على الفاضى فيسمع صوته:

– نعم قليلا منه يا سيد «جابر»..

– عظيم.. هل سمعت عن موقعة حربية اسمها موقعة «الخطاطبة» يا أسطى عثمان؟

فبانت الحيرة على الرجل ثم جازف لينقذ الموقف قائلا:

– نعم.. التى هزم المصريون فيها نابليون.. تمام؟

فضحكوا كثيرا، ولما أفاقوا قال عم «جابر»:

– اسمع.. سأصحح لك معلوماتك، موقعة «الخطاطبة» هى التى هزم فيها البطل المصرى أبو شنب فضة.. عساكر الإنجليز فى الحرب العالمية الثانية.

فبدا الفهم أخيرا على وجه الأسطى عثمان.

ثم أخذ الحديث يهدأ والجو يميل نحو السكون، وكان عم «جابر» يحملق فى المرآة إلى الجرح الهلالى والشارب الهلالى والشارب الغزير فى الوقت الذى اندفع فيه عامل من ورشة نجارة مجاورة وهو يصرخ:

– الحق يا عم «جابر».. الحق يا عم «جابر»..

وألقى فردة حذاء من الجلد الرمادى على الأرض، نظر الرجل إلى لونها وكعبها العالى فدارت به الدنيا، فى الوقت الذى أخذ «رضا» فيه يجرى مسعورا فى شارع قصر العينى ويصرخ فى الظلام:

– أين ذهبوا بها؟.. أين.. أين؟.. أين؟.

* * *

بقيت كلمة «أين» تتردد فى أفواههم وأذهانهم طول الليل وبدا الأمر غير معقول فى خواطرهم، غير معقول أن يخطف جنود الإنجليز عذراء مصرية اسمها «ثريا» ويهربوا بها فى سيارة.

كانت مارة على ورشة النجارة فعرفها النجار ثم ما لبث أن سمع صراخها، ثم أخذ المنظر يجرى كأنه محموم.. ولما يئس الرجل

من اللحاق بهم عبر فى الطريق بفردة حذائها وكان والدها قد مر به وهو فى طريقه إلى الصالون، وبذلك انتهت القصة.

ولم يكن عم «جابر» قادرا على تصور الموقف، أهو عار؟ أم بطولة ذلك الذى حدث له؟! لكن غاية علمه أنها إحدى كوارث الحرب، وقد أصابته مثل كارثة «طوربيد» باب سدرة فى الإسكندرية تلك التى استأصلت أسرا من جذورها.

وبكى والقطار يقطع به كل الطرق، وهو يخيل إليه أنه سيلقاها على أى محطة، لأن اليوم الرابع جاء ولم تعد «ثريا».. جروا بها ناحية معسكرات الأهرام.. فتذكر عم «جابر» ما قاله عثمان الحلاق عن هزيمة نابليون فى موقعة الخطاطبة، فضحك وهو يبكى.

أما «رضا» فقد كان بادئ الأمر مذهولا ثم شعر فى اليوم الثالث أن كل شىء قد ضاع وأن صفقة الحياة بالنسبة إليه لا تعنى شيئا ولم يكن حتى هذه اللحظة قادرا على أن يلقى أحدا من أسرة «ثريا»، لم يكن يتصور أن يقول لأحدهم كلمة رثاء.

ودخل المساء.. مساء اليوم الرابع.. وتقدمت خطا الليل، وكان «رضا» منذ ظهر هذا اليوم يرى أنه لابد أن يعمل شيئا. وما إن انتصف الليل حتى هبط السلم وتحت سترته شىء ملفوف.. وخيل إليه بعد أن خطا أول درجة من عند السطوح أنه يسمع صوتا.. وتوقف.. ونظر فى فضاء السطوح فلم يجد أحدا ثم رفع بصره إلى السماء.. لم يكن فيها ساعتئذ إلا النجوم وتحتها الألسنة البنفسجية للأنوار

الكشافة، واستأنف سيره وأحس أن دهرا قد مضى وهو يهبط، ومر على الأبواب كلها فلم يسمع أدنى صوت.. «كلهم نائمون فى هناء.. إلا قلبى»، وعند باب شقة عم «جابر» توقف، لم يكن هناك صوت ولا ضوء، وطافت بخاطره ذكرى الليلة الأولى، ليلة رأى «ثريا» فى ثوب ليلى واسع وجسمها يتثنى.. وذكر حادثة الخطف فكاد يصرخ.. وتذكر الموقف الأخير ساعة اغتصب منها فص الياقوت.. «لقد سقط من على عرشه. وهذا فأل «ثم قولها هى: سآخذ بثأرى»، ونزل بقية الدرجات وكلماتها تملأ أقطار قلبه.

وخرج إلى الشارع، كان الطريق طويلا ممتدا وقضبان الترام تلمع فى البقع المضيئة، واتجه نحو ميدان قصر العينى، وهاله السكون العادى المخيم على المكان، وعلى بعد مائة متر جاءه صوت ضحكات مضطربة أصحابها ليسوا فى وعيهم وشيئا فشيئا وضحت خطواتهم الثقيلة فى الأحذية العسكرية. كانوا من الإنجليز.. وكانوا ثلاثة. وعبروا أمام المستشفى فى اتجاهم نحو فم الخليج، وهو يتابعهم على بعد. وفهم ماذا سيعملون بعد دقيقة فجرى وسبقهم، وهناك فى الميدان الصغير أمام كلية الطب رقد فى المنتزة الخالى من النور الملتف بالظلمة على مقربة من باب المراحيض الواقعة تحت الأرض.

وجرى الجنود الثلاثة وهم يضحكون، كانوا يتحدثون عن البيرة وشربها بكثرة وهبط منهم اثنان وتخلف الثالث قليلا وبينما كان يهبط، وعندما وازى رأسه سطح الأرض وقف «رضا» وأخرج القضيب

الحديدى وضربه به فى مؤخر رأسه، فتدحرج من على السلم فاقد النطق، ولم تمض نصف دقيقة حتى انسرب فى الظلام ليأخذ إلى البيت طريقا آخر.

وعندما عاد رأى سلاحه ملوثا بالدم فأحس بعض الراحة.

وكانت الساعة قد بلغت الواحدة. والنوم لم يحم حول جفنه وشعر بحنين إلى عم «جابر» أن يرى القوة والمرح وأثر النكبة فى البناء المتين، لكنه ما لبث أن سمع خطواته تعبر السطوح، وطرق عليه بابه ففتح، فدخل وعلى وجهه علامات غامضة، والجرح الهلالى على مقربة من زبيبة الصلاة، وتعانقا فى صمت، وحاول كل منهما جاهدا أن يحبس دمعه، أحس كل أن الدموع حرام، وجلس كل تجاه الآخر، وشعرا أن كل منهما يدخر سرا سيبوح به، فقال «رضا» بعد صمت:

– تشرب شاى يا عم «جابر»؟

وكان هذا «فتح كلام» فهز الرجل رأسه وقال وهو يبتسم فى مرارة.

– ولا قهوة.

وخيم الصمت ثم عاد الرجل يقول:

– تعرف.. أين كنت؟

– لا.

فأخرج عم «جابر» من بين ملابسه قضيبا من الحديد مكسوا بالكاوتش، فقد كان فى نفس المهمة فى مكان آخر.

وعض «رضا» شفته السفلى ثم قدم إليه سلاحه..

ونزل الرجل بعد قليل، لم يكن هناك شـيء يقال. أصبح مفهومًا أن بعض القضايا لا يجدى فيها القول. حتى ولو كان بليغا.

وخف العبء على قلب الرجل حين نظر سـكان الحى إلى مأساة «ثريـا» نظرة حقيقية على أنها كارثة وطنية لا حادثة «عرض». أما «رضا» فقد أصبح الطريق أمامه ذا شعبتين، شعبة فى الريف وشعبة فى المدينة. لقد خطف وطنه وقلبه. فماذا بقى؟

وأخذ أهل الحى ينسجون حول «ثريا» أخبارا وأساطير، فكان عم «جابر» يفاجأ وهو سـائر بمن يستوقفه ويهنئه بعودتها، وبعضهم يقول إنها فى مكان ما وتراسل أباها لأنها خجلة، وبعضهم يقول: لقد ظهرت فى الإسـكندرية فتاة عجز البوليس عن القبض عليها، تطلق النار على جنود الإنجليز كل ليلة فى مكان جديد.

ومن خلال هذا كله أحس الأب بوجود «ثريا»، لكن حقيقة الأمر أن «ثريا» كانت مجهولة المصير.

* * *

مفترق الطرق

كان «رضا» كل ليلة يشعر أنه سيخرج ولا يعود لكنه كان يفاجأ بوجود نفسه وهو يحملق فى المرآة على الحائط كأنه يرى شخصا غريبا عنه قصة قلبه تهز كل مشاعره. وسأل نفسه ذات ليلة سؤالا هاما: «إلى أى الجبهتين يجب أن يوجه قواه جبهة الريف أم جبهة المدينة؟»

ولم يستطع أن يجد الجواب فقد بدت كل جبهة وكأنها سبب فى وجود الأخرى، كحلقة مفرغة لا نهاية لها أو دوامة تستغرق الحياة كلها. ورسخت هذه الفكرة فى ذهنه كعقيدة لقنها من قديم وأغمض عينيه ونام، وعندما وصل إلى المطبعة وقت الصباح سأل عن أحد زملائه فعلم أنه استغنى عنه لأن العمل يتناقص بحكم عدم وجود الورق.

فشعر كأن السهم موجه إليه.

أصبح يحس بآلام غيره أكثر من قبل، وشعر أن الوجود لا يستغنى عن شىء موجود لأن كل شىء له مهمة، وإذن هو لم يخلق اعتباطا ولا أى من الناس.

وأخذ إجازة ثم ركب إلى محطة القاهرة واستقل القطار إلى الريف..

كان كل شـيء يجرى بطريقة حلم تقطعه لحظات من اليقظة، لم يكن فـى عزمه أن يفعل أكثر من الذهـاب إلى قرية أمه.. وهو يود أن يعود بأمه، فهو لا يسـتطيع أن يحيا بقلب واحد، شـأن كل من فـى الدنيا وإن غاب ذلك عنـا، كانت الصحراء تبدو أمامه مترامية واسـعة مبهمة تحمل أسـرار الذين عبروا إلى مصـر ليغتصبوها، وأسرار والده وأخيه.

وخيل إليه أنه تائه، إنه لا يعرف ماذا سـيفعل اليوم.. «نعم ماذا سأعمل»؟

واستسـلم لهدهدة القطار حتى خيـل إليه أنه نام، ولما وصل إلى المركـز الذى سـيأخذ منه طريقـه إلى قرية جده لأمـه أو إلى عزبة «ماضى». وقف فى مفترق الطرق حائرا ماذا يصنع.. وواصل سـيره فى الشـارع الرئيسـى إلى حيث تقف العربات وسيارات الأجرة.. ووقع بصـره على اللافتة التى تحمل اسـم الأسـتاذ البتانونى فى الميدان الصغير أمام الصيدلية الوحيدة وعيادة طبيب المركز.

ووجد فى الميدان زحمة غير عادية فكان اليوم يوم السـوق يكثر فيه الوافدون من القرى المجاورة.

وتلفت «رضا» حوله، وفى هذا اليوم ود لو أنه التقى بـ«حمودة».. إن ما بينهما سـينتهى فى دقيقة أو دقائق ما دامت الدنيا فى رأيه لا تسع اثنين.. وطحن أضراسه وعبر الميدان إلى باب المكتب ثم دخل على الوكيل.

كانــت الحجــرة غاصة بالناس كمــا هى العــادة. ورأى فى هذا اليوم أيضا ذلك الشــاب الذى نســى غليونه بين أسنانه ومال بعنقه كأنــه مذهول وإلى جواره الريفى والحارس فأحس أن بينهما قضية مشتركة.

وعندما قدم «رضا» نفسه للوكيل – هتف مرة أخرى:

«قضية مصر.. لحظة واحدة».

وجلــس ينتظر دوره. ولم يمض وقــت طويل حتى دخل رجلان عرفهما «رضا» لأول وهلة وهما «حسن» و «حمودة»، ورأى «حسن» صديقه فأومأ له أن يغادر المكان، ، وبدا القلق فى عينى الوكيل لأنه لم يفهــم المقصود من هذا اللقاء، وخرج «رضا» من المكتب ولم يعرفه «حمودة» الذى ظل بانتظار دوره ليدخل على الأستاذ البتانونى.

وهمس له الوكيل وهو داخل: إن أخاك كان هنا.. ألم تره؟

وتلفت «حمودة» وقد تجمع فى وجهه دمه كله لكنه سمع الوكيل وهو يقول له: لقد خرج.. هل ستتفقون؟

وكان هــذا ترجمة لرغبة الأســتاذ البتانونــى ألقاها الوكيل بلا مبالاة فــى أذن «حمودة» لتفعل فعلها، وعندما دخل «حمودة» على الأســتاذ ألفاه متهلل الوجه لكنه يبدو جد مشغول وأكب قليلا على بعض الأوراق ثم رفع رأسه وقال لحمودة بابتسامة مختصرة:

– مبروك..

وكان رد «حمودة» امتقاعا وصمتا ثم ســؤالا عن ســبب التهنئة، فقال المحامى:

– بلغنى أن المصاهرة الجديدة ستتم حالا وأن أسرة «السبع» قد رحبت بك.. أخيرا!

وعاد يفحص بعض أوراقه ويراقب وجه الفريسة بنظرة من تحت لتحت، فقد كان منذ يوم واحد مع رب الأسرة ذاتها ولما سأله عن الإشاعة نفاها الأب بيقين فقال له الأستاذ البتانونى يومئذ:

«كان هذا ظنى فمن العار أن تصاهر أسرة السبع ابن سمسار المواشى القديم فضلا عن أنه مطارد، وأبناء السيد الجنايني لن يدعوه يهدأ.. إلا إذا كنت مولعا بمصاهرة المشاكل».

وضحك الأستاذ يومها كأن الأمر لا يعنيه ثم تأكد لديه أن هذه المصاهرة لن تتم لأنه تعهد هذه القضية بالعناية.

كان «حمودة» ينفخ الدخان وهو جالس بقلق وعينه معلقة على الآية فوق صورة الميزان «إن الله يأمر بالعدل والإحسان». ومن خلال دوامة الماضى التى لفت «حمودة» سأل «حمودة» الأستاذ:

– من قال لك إنها ستتم؟

رد بعدم مبالاة وبطريقة تزرع الشك وتوحى بالتهكم:

– سمعت..

– ممن؟

رد وهو يفتح درجا ويفتش فيه:

– ممن؟ منهم يا أخى.

قال وهو يخرج مسدسا من درجه بطريقة من نسى شيئا بين الأوراق ثم أعاده إلى مكانه:

– وهل هناك غيرهم يا سيد حمودة؟ المجرمون..

فسأل «حمودة» مستطردا من القلق:

– وماذا يهمهم من هذا.. مالهم ومالى؟

وقال الأستاذ بعد أن استدار إلى الناحية الأخرى من أدراج مكتبه يفتحها واحد بعد واحد.. قال فى شرود وكأنه لا يعنى شيئا:

– آه.. سألتنى.. يهم جدا أن تكون ضعيف الجناح غارقا فى المشاكل وبذلك يمكن بسهولة أن يأكلوك..

هتف كأنه لسع:

– يأكلونى؟

فضحك الأستاذ كمن يعتذر لكن بلا مبالاة:

– لا تؤاخذنى.. فلتة لسان.. لكن النصيحة دائما فلتة من فلتات اللسان يا بنى.. هيه. هذا عيب.. عيب المهنة بين المعارف والأقارب. لو كنت محاميا فى القاهرة ما نصحت أحدا، لعملت على أن تمتد الخصومة بين كل اثنين وبطريقة مشروعة لأستفيد.. هه..

كان يتكلم وهو يفتش فى أدراج مكتبه واحدا بعد واحد.

– لعنة الله عليك.. لك يوم.. (ثم نظر إلى «حمودة» معتذرا عن هذا الخلط قائلا فى أدب).

– آسف.. فإن عبد القوى وكيلى رجل مهمل.. سيقتله الحشيش. «وقهقه» تعددت الأسباب والموت واحد. نعود للموضوع.. إن المستند الحقيقى وصل يا «حمودة» بيه..

– وصل؟

– لا تقاطعنى يا سيد «حمودة» فأنت تبدو مرهف الأعصاب فى هذه الأيام.. ومن الغريب أنك لا تعرف طبيعة المشاكل..

رد بجهل:

– طبيعة المشاكل.. ماذا تقصد؟!

فعاد البتانونى يضحك، كل هذا ولم يرفع إليه عينيه، لم يلتق بصر الرجلين أبدا، وعاد إلى الأدراج التى إلى يمينه وفتحها من جديد، ووجد المسدس حيث هو فأخرجه وأخذ ينظفه ويقول:

– لو كنت تعلمت فى الجامعة لعرفت أن لكل نوع من المشاكل طبيعة.. مثل.. الأرض.. هاهاها... فيه أرض رملية وأرض سمراء وأرض صخرية.

ثم وضع المسدس فى الدرج وأقفل عليه، ثم فتح الثانى وأخذ يبحث عن شىء معروف، واستطرد:

– وهناك مشاكل يا سيد «حمودة» من طبيعتها أن تكثر المنافقين من حول الشخص لأنهم ينتفعون ببقاء المشكلة، وعندما تجىء النهاية لا تصيب أحد منهم بسوء فإنهم حالا يغيرون ملابسهم.. هل فهمت؟

– نعم.

– هل تؤمن بالوراثة يا سيد «حمودة»؟

– يعنى؟

فرد البتانونى ضاحكا:

– لا لا لا لست أقصد وراثة الأرض عن الأب أو الجد، فهذه بينى وبينك لا يجب أن نؤمن بها.

ورد وهو يلهث:

– لماذا؟

– لماذا لأن تزويرها سهل، سهل جدا.. أنا أتكلم عن وراثة أخرى.. وراثة الطباع والخصال والعادات.

فامتقع وجه «حمودة» وهم بأن يقوم ويخرج لكنه شعر أنه مرتبط بهذا الإنسان الكريه ارتباط الإنسان بقدره لا يمكن الفرار منه ولو كان كريها. فرد بغيظ مكظوم:

– وماذا كنت تريد أن أرث من طباع والدى يا أستاذ؟

– آه.. السماحة والطيبة والاعتماد على النفس.. والسعى فى الأرض والعرق الحلال.. هيه.. ما رأيك؟!

– رأيى أنا؟.. كل هذا صحيح..

فاعتدل الأستاذ فى كرسيه بعد أن أقفل كل الأدراج وصوب عينيه على «حمودة» الذى بدا كأنه صيد فى شبكة محكمة الأطراف وقال له:

– كان رجلا طيبا رحمه الله، هل تذكر تاريخ كفاحه..

ثم نظر إلى الآية والميزان ثم اعتدل يسأل فى لهجة أكثر جدية وحزما:

– وطلبات السيادة!!

فتردد ثم تقلقل فى كرسيه ثم قال:

– أنا متأكد من أن مسألة السند المزيف إشاعة كاذبة.

– متأكد؟ «وهز يديه فى إهمال وعدم اكتراث» حسن.. ولماذا جئت لى؟ إنى لم أقبل قضيتك حتى الآن ولا قضية أخيك، ولا قضية الجنايني. كلها تدور حول الأرض. وأنت تعلم أن معنى قبولى أن أكون وكيلا عن أحد الأطراف الثلاثة.

فرد بخضوع:

– أعلم..

– عال.. من الممكن أن تخرج من باب السلامة، فأنت حين تتصالح مع أخيك لن يجد أعداؤك ورقة يلعبون بها، وليس هذا هو الغنم الوحيد، بل هناك غنيمة إيجابية هى أن تصاهر أسرة السبع وأنا كفيل لك بالسعى لديهم.. يمكن أن تثق بى..

فتهلل وجه «حمودة» بدا عليه أنه قد وصل إلى قرار لكن الأستاذ البتانونى لم يدعه يتمتع بهذا حتى لا يكون صاحب فضل فى الحل السلمى، فقال: وعندما يتم الاتفاق بينك وبين «رضا» سآخذ عليه تعهدا بالتنازل عن كل حقوقه فى الريع وسنفرض لك جزءا إضافيا

مــن الأرض نظير التقدم الزراعى الذى حــدث بفضلك.. يعنى.. لن تكون ضحية،. «وضحك فى لطف».

هتف «حمودة» بفرح وكأنه أطلق من سجن:

– موافق.

فاستطرد البتانونى:

– حسن.. إلى اللقاء قريبا..

* * *

خرج الأستاذ البتانونى وهو سعيد بهذا النصر فقد أصبحت عزبة «ماضى» من ضمن أملاك المســتقبل لأسرة البتانونى الواسعة الأملاك لأن «رضــا» لــن يمانع فى بيع جــزء من أرضه لشــقيق البتانونى، وعندئذ تبدأ خطة جديدة.

وكان «رضا» فى هذه الليلة فى بلدة أمه حيث ذهب إليه «حسن» ورســول من البتانونى ليخبراه بالأمر وهو فى غمرة من الأحزان، ولم يكــد يصدق ما سمع، لكنه حين قابل الأســتاذ البتانونى عرف حقيقة الموقف، وكاد يرفض لولا أنه تذكر أن فى هذا حقنا للدماء، ولو أن معركة جديدة ستبدأ بينه وبين هذا الرجل الغريب ولا شك فى ذلك.

وحــدد موعد اللقاء بعد ثلاثة أيام أقامها «رضا» فى القرية. كان يرى ذوائب النخل وأبراج الحمام فى وطنه. تحلق أســراب الحمام

فى السماء، ثم تهفو مع كل مغرب نحو أكنانها وتقطع الليل فى الحب والهديل.

ولم يكن ينسى «ثريا»، كانت تصاحبه فى غدواته وروحاتة كأنها تخالط كل نسيم.

ولم يبق إلا يوم واحد على الموعد المحدد، واستيقظ «رضا» فى الهزيع الأول من الليل على من يحمل إليه نبأ مصرع «حمودة» إذ انطلق عليه الرصاص، من سيارة مجهولة مطفأة الأنوار مرت بسرعة مجنونة على الطريق الذى تقع عليه عزبة «ماضى»، وكان الوقت مساء، و «حمودة» عائد من حقول القطن يركب بغلة.

قيل إن أبناء الجناينى هم الذين فعلوا ذلك قبل أن يخلص من مشاكله ويتفرغ لهم، وشاعت إشاعات أخرى.

لكن الذى يعنى هو أن الأستاذ البتانونى سهر يندب خطته المنهارة، فقد آلت العزبة إلى الذى شرد عن أرضه أكثر من عشر سنوات..

* * *

وما لبث الناس أن نسوا اسم عزبة «ماضى» وأطلقوا عليها اسما جديدا. ولم يعد أحد هناك يشعر بالعزبة التى كان يشعر بها من قبل بعد أن ارتد الغريب إلى وطنه. كان فى خنصره خاتم من الياقوت يحمل ذكريات حب لن يغيب عن القلب أبدا، وحوله وجوه سمراء

وهـو يعبر القنطرة التى تفصل بيـوت الفلاحين عن بيت «حمودة» سـابقا. وكأن صورة لوجه رجل عجوز كانت تطل من شـباك الدار القديمة. صورة أخرى لرجل أسمر ربعة قصير بشارب غزير يسكن القاهـرة، قلبه يخفق بالحب والثأر لنفس الفتاة التى سـكنت قلب «رضا».. كان يمشى معه جنبا لجنب..

وكانت الشـمس يومئذ قد ارتفعت عن الأفق الشـرقى، والترعة تتدفق نحو الشمال فى فيضان عال، والأشجار على شطها ترمى إلى الماء ببعض الأزهار كلما هزها نسيم ذلك اليوم.

«تمت»

كفر بولين

القاهرة ١٩٦٣م

* * *

obeikan.com

مؤلفات الأستاذ محمد عبد الحليم عبدالله

١ – لقيطة
٢ – بعد الغروب
٣ – شجرة اللبلاب
٤ – شمس الخريف
٥ – غصن الزيتون
٦ – من أجل ولدى
٧ – سكون العاصفة
٨ – الماضى لا يعود
٩ – ألوان من السعادة
١٠ – أشياء للذكرى
١١ – النافذة الغربية
١٢ – الضفيرة السوداء
١٣ – حافة الجريمة
١٤ – الوشاح الأبيض
١٥ – الجنة العذراء
١٦ – خيوط النور
١٧ – الباحث عن الحقيقة
١٨ – البيت الصامت
١٩ – أسطورة من كتاب الحب
٢٠ – للزمن بقية
٢١ – جولييت فوق سطح القمر
٢٢ – قصة لم تتم
٢٣ – الدموع الخرساء
٢٤ – غرام حائر
٢٥ – عودة الغريب
٢٦ – حلم أخر الليل
٢٧ – الوجه الأخر
٢٨ – لقاء بين جيلين

obeikan.com